THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ش.ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.
أبوظبي U.A.E.

ABDUL HADI SADOUN

عبد الهادي سعدون

مذكرات كلب عراقي

رواية



مذكرات كلب عراقي

رواية

عبد الهادي سعدون





الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-9948-446-28-6

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

أبوظبي	هاتف: 6345404 (2-971+)	فاكس: 6345407 (2-971+)
دبي	هاتف: 2651623 (4-971+)	فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت	هاتف: 786233 (1-961+)	فاكس: 786230 (1-961+)

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

فاتحة المذكرات

في بلد لا أريد أن أذكر له اسماً، أجلس اليوم حتى آخر نباح في حياتي، كي أدون هذه المذكرات التي مرت من عمري. كما تعرفون فجنس الكلاب من فصيلتي لا نعيش لأكثر من اثنتي عشرة سنة من سني البشر، ونصل للتسعين بعدد سنينا الكلبية، على الرغم من أنني لا أطمح حقيقة بالوصول لهذا العمر المتقدم.

أجلس في ركن من بيت متداعي، أحمد الله أنني أجد في مسطبة قريبة من مخزن البيت، مأوى أميناً يقيني من سياط الشمس وبلل المطر لأمضي فيه أيامي الأخيرة براحة ودعة. أعرف أنكم لا بد أن أدركتم أنني قد غادرت بلدي العراق مكرهاً منذ سنة ونصف السنة، ولأنني لم ألحظ شيئاً هاماً في هذه المدة الأخيرة في هذا البلد الذي أعيش فيه اليوم - والذي لا أريد أن أذكر له اسماً - لذا لن تسمعوا عنه شيئاً في مدونتي هذه.

كما هو معروف عن فصيلتنا الكلبية من حراك، فقد تستغربون أن تجدونني خامداً أكرس أيامي المتبقية لكتابة مذكراتي نباحاً وراء آخر - كما اعتاد النقاد أن يسمونها - ولتسمحوا لي أن أكررها ها هنا ليس تبجحاً بعلم ولا سخرية منك عزيزي القارئ، فثقل أيامي الأخيرة بفقرها وجوعها ومرضها ومتاعب الشيخوخة، هذا دون ذكر جرحي الأكبر بمغادرة بلدي العراق، لا يتيح لي - ولا لكم كذلك - الضحك أو الهزل مما سيأتي ذكره!

لتعلموا أنني لست الأول من بني جنسي بتدوين مذكراته. ولكنني على الأقل قد أكون المنفي الأول في كتابتها، فلم يحصل لي الشرف

بقراءة مذكرات كلب بعيد عن أرضه. سمعت بمذكرات قطط ونعاج وأبقار، بل حتى فئران، تصفُ فيها أيامها في سفر طويل أو مغامرة بعيداً عن أوطانها، أما عن مغامرات كلب منفي، فقد أكون الأول الذي يدون ذلك.

كما لا بد أن أكون صريحاً بأنني قد استفدت كثيرات من يوميات بهائم سبقتني بتجاربها الغريبة ووقائعها العجيبة، إذ كما تعرفون أن لا أحد منا يكتب شيئاً جديداً، فكله مكررٌ منتحلٌ وما علينا سوى الإضافة أو التصحيح والمراوغة في الاستطراد أو الحذف والتجميل، عليه لا أستطيع أن أقول إن تجربتي تختلف عن تجارب أخرى، إذ ليس فيها سوى شيء واحد مغاير: نباحي الخاص بي لا غير.

لا أغالي إن قلت أن مثلي الأعلى هي رواية (حوار كلبين) لثربانتس، الذي لم أكن أعرف منْ هو حقيقة حتى ذكره لي صاحبي المعلم. كان يقرأ له باستمرار وحكى لي شذرات من حياته المجحفة الطويلة. لكنني لم أتوقف حينها على معرفة المزيد (ولن أتوقف اليوم!)، فالحقيقة أنه ما أن طرق سمعي للمرة الأولى ذكر صاحبي لرواية ثربانتس المثالية تلك حتى ازداد نباحي تعلقاً بسماعها. ولم أملْ لمرة واحدة من سماعها على لسان معلمي، حتى إنني قد حفظت عن ظهر قلب كل تفاصيلها ومفرداتها وتقنيتها.

ولكن لتعلم عزيزي القارئ أنني لم ألجأ للخداع في كتابة مذكراتي هذه، إذ إنني استفدت من الرواية كمثال حي لما يمكن أن أكتبه، ولم أقلدها بالمرة. كما أنني لم أنتحل منها ولا كلمة واحدة، ذلك أن كل ما أكتبه هنا هو ما جرى لي فعلاً ولا علاقة لكلبيّ الأكتع الأزعرين بها من قريب أو بعيد، سوى ذكرهما بين سطور هذه المذكرات.

كما أنني سمعت أن أحدهم، لا أعرف منْ قال هذا - لتعذرونني

فذاكرتي تضعف مع مرور الأيام - قد نصح أمثالي بكتابة مذكراتهم بالشخص الأول، لسببين: أنها مذكرات خاصة، والأهم من هذا، هو أن أجعلها لصيقة بكل مـنْ سيطلع عليها، قريبة منه كقرب الجفن للعين كما تقول الأغنية الشعبية العراقية، وكأنها تجربته الشخصية ذاتها. متأملاً فيها أن تكون عبرة ومثلاً لكلاب المستقبل فيما لو شاءت كتابة فصول حياتها بنفسها.

لا شيء آخر أضيفه بعد. فأقول إنني المدعو (ليدر) أدون هذه الأوراق بكامل إرادتي، وليس لي غرض منها سوى مراجعة تفاصيل ما عشته، وكأنه يمر بخيالي كشريط حي بكل مرارته وحلاوته. فمصير الواحد منا كما قال أحد البوهيميين ليس أكثر من هذه الخربشات الممهورة ببصمة مبهمة، والتي نظنها غير جديرة بالتمعن، فتكون عند غيرنا أكثر من رغبة وشهادة عن مرورنا العابر في ثقب الحياة المتأرجحة.



"يا إلهي كم هي ثقيلة الكلمات".

(آراغون)

"ما منْ أحد يسبق ظله".

(مثل شعبي)

ذكر الأحداث الغريبة والوقائع العجيبة
لما جرى للكلب العراقي المدعو ليدر



ولادتي عند نهر دجلة ورؤيتي للعالم بلون واحد

ولدتُ - كما علمت فيما بعد - عند حافة نهر دجلة، في بيت سيد الدار الذي كان الجميع يطلق عليه لقب المعلم. ولولا أنني لا أريد أن أكرر جملة سمعتها في رواية سابقة، لقلت مثلها تماماً، لأن هذا ما حصل معي تقريباً، إذ يمكنني القول إنني قد ولدت في وسط النهر فعلاً. ولكن الحال في مثل ولادتي، أن جاء أمي المخاض في "خُصها" منتصف حديقة الدار الكبيرة المطلة على نهر دجلة. والحق أن أول صورة لصقت في رأسي - إضافة لوجه أمي المجهد - هي حركة امواج النهر التي تروح يمنة ويسرة، وكم تمنيت في أغلب أيام تواجدي هناك لو أستطعت اللحاق بها ولو لمرة واحدة.

أنجبتني أمي المدعوة "سابويسو" مع شقيق لي آخر وشقيقتين، ولم أحظ برؤية والدي "السلوقي" إلا بعد أيام ثلاث. جاء ليهنيء أمي برفقة المعلم. على ما أذكر أنهما كانا في رحلة صيد في الجزيرة المسماة بـ أم الخنازير، مرتع أصناف حيوانات متعددة مثل الغزلان والأرانب والحجل، وبالطبع الخنازير البرية الكثيرة المتسيدة على الجزيرة ولهذا تسمى بذلك. لكن قبل أن أستمع لنباح أبي واقترابه منا، رأيت للمرة الأول وجه المعلم مقترباً من السلة حيث أنا وأخوتي وأراه مبتسماً مربتاً على فرواتنا وسمعته يقول: "يا للجراء الجميلة!".

كنت الوحيد بعينين مفتوحتين، بينما كان أشقائي يغطون في النوم متشبثين بضرع أمي. كانت قد مرت ثلاثة أيام على ولادتنا، والعادة أن لا تنفتح أعيننا إلا بعد عشرة أيام أو أكثر قليلاً، وهو الحال

الـذي ظـل عليـه أشـقائي دوني لأننـي كنت قد فتحتهمـا منذ اللحظة الأولـى لسـقوطي مـن بطـن أمـي وإلا لما تذكرت طلـة المعلم وأبي علينا، ولما أدركت حركة المياه ولونها الوحيد.

هززت ذنبي وتحسست يد المعلم الممدودة ولحستها متعلقاً به وكنت راغباً أن يحملني، فسمعته وكأنه يسر أبي ومربتاً على رأسي: "آه، لا بـد أنـه أذكـى أبنائـك". فحملنـي مـن السـلة وأخذني بحضنه ونهض ودخل بي إلى البيت.

جلـس علـى كرسـي في الصالة، سـأعرف فيما بعد بأنه كرسـيه المفضـل، ووضعنـي في حجره. من هناك، ومن خلال النافذة المطلة على الحديقة، راقبت أمي وأبي يتناجيان، يلحسان بعضهما ويتأملان أشـقائي الصغار النائمين في السـلة. بعدها بلحظات جاء أبي راكضاً ليدخل الصالة وينام بالقرب من قدمي المعلم. راقبت المعلم متأملاً أبـي ويكلمـه بلغـة لم أسـمع مثلها من قبل، وأبي بـدوره يجيبه بنباح وجدتنـي أعـرف فحـواه، فرحـت أنبـح مثله، فما كان مـن المعلم إلا أن ضحك ملء فمه واحتضنني بشدة موجهاً كلامه لأبي: "ابنك هذا سيكون له شأن كبير!".

ثم عقب قائلاً: "وسيكون رفيقي من بعدك أيها السلوقي العظيم".

كانـت المـرة الأولى أيضاً التي أسـمع فيها كلمة "سـلوقي" من منـاداة المعلـم لأبـي، كنت أعتقد أن هذا اسـم أبي ولكن بعد سـنين سأفهم لماذا ينادونه بالسلوقي.

بينما كنت في حضن المعلم خانعاً بلا حراك، سمعته يخبر أبي المقرفص أمامه قائلاً: "ابنك هذا سأدعوه ليدر". ثم راح ينطقه بلفظه الأجنبي مكرراً الاسم وكأنه يخشى هروبه:

"أجل هو ذاك، ليدر، ليدر، ليدر، Líder, Leader".

ثم صمت وراح يتأمل الحديقة ففعلت مثله.

ذكر المرة الأولى التي أسمع بها معنى اسمي

أسماني المعلم بـ"ليدر" تيمناً بأنني سأكون قائداً وأنه سيكون لي شأن كبير كما كررها لمرات أمام أبي، وكذلك عندما نكون لوحدنا في ليالي وحدته مع كأسه في الصالة أو في الحديقة. المرة الأولى التي فهمت فيها معنى اسمي، كان ذلك في مناسبة غامضة. جاء فيها أصدقاء المعلم لتمضية الوقت في سهرة حتى الفجر في داره القريبة من نادي سياحي يؤمه ناس كثر يأتون بسياراتهم ويركنونها مبعثرة على الأرصفة وفي زوايا الشوارع المجاورة، بل حتى في مواجهة دارنا، لدرجة أنه قد يؤدي لسد بوابة الدار الرئيسية لولا أن المعلم قد سدّ الممر المؤدي بحاجز حديدي متحرك يزيحه بنفسه لمرور سيارته وسيارات ضيوفه فقط.

كان قد مرّ على ولادتي أكثر من شهرين، وقد أصبحت منذ ذلك الحين رفيق خلوات المعلم.

إذ بينما كان أبي يرافق المعلم رحلات صيده وخروجاته المتتالية إلى اماكن بعيدة أخرى، كان نصيبي جواره في البيت عندما يرغب بالاستراحة لأيام في داره، إذ يمضي أبي جل وقته برفقة أمي. أما أنا فقد كنت أهز بذيلي مقتفياً أثره ما أن أراه يدخل الصالة. أجلس جواره وأراقبه متمعناً الحديقة أو باحثاً في أشيائه وأوراقه أو ماضياً الوقت كله بالقراءة. كنت كلما هممت بمعرفة فحوى ما يعمل، كان يربت على فروتي ليطمئنني بأن الوقت لم يحنْ بعد ليشاركني قراءاته، كان يكرر على أسماعي: "سيأتي دورك يا ليدر، لا تستعجل الأمور،

وسترى كم رائعة هي الحكايات التي سنقرأ سوية".

تلك الليلة، ليلة حضور أصحابه إلى الدار والاحتفالية التي أقامها لهم، مرت ما بين شرب وأكل، أطباق الرز والخضار واللحوم، أطباق هائلة من المأكولات التي كان يحملها رجال برفقة نسائهم يطلب منهم المعلم المساعدة بالخدمة والطبخ بين حين وآخر. فهمت من لهجتهم أنهم قدموا من شمال البلاد بعد أن طردوهم من قراهم، فكانوا أن أستقروا في بغداد ليشتغل الأب والأم وابنائهما بشتى المهن كي يعيلوا أنفسهم. هم لا يقيمون بعيداً عن دارنا، فقد خصص لهم المعلم جزءاً من أرضه الزراعية ليشيدوا لهم بيتاً بسيطاً، فكانوا من جانب يشرفون على المزروعات والأشجار في الأرض، ومن جانب آخر يساعدونه بتصريف أعماله. لم أفهم من لهجتهم الكثير عندما يتحدثون فيما بينهم، ولكني لمرات رأيت المعلم يكلمهم بلغتهم وعندما يودعهم كان يناديهم بأبناء الخال. عرفت فيما بعد أن أم المعلم تنتمي لعائلة من الشمال وقد علمت ابنها لغة قومها إضافة إلى أشياء أخرى من عاداتهم وأصولهم، فكان يستغل كل فرصة لتواجدهم كي يجدد معلوماته التي باتت تتلاشى مع مرور الأيام.

في تلك السهرة كنت المرافق الوحيد له ولأصدقائه. كان أبي قد مُنِح استراحة بعد يومين من رحلة صيد في أدغال بغداد الشرقية، وقد عاد الاثنان بصيد وفير من طيور الحجل والأرانب البرية التي تعشى بها ضيوفه، كان نصيبي لوحدي نصف أرنب مطبوخ بالتوابل.

في تلك الجلسة - كما في جلسات أخرى في مناسبات عديدة - سمعت فيها تعابير لم أفقه منها شيئاً إلا فيما بعد. كان الجميع يتحدث عن الأوضاع الأخيرة والمناسبة التي تقترب للتغيير في البلد. سمعت الجميع يصر على كلمة "ديمقراطية" ولأنني لم أعرف ماذا تعني أو منْ تكون تلك "الديمقراطية" التي يتحدثون عنها، كنت أنبه

الجميع على وجودي بأن أنبح كلما جاؤوا على ذكرها. فما كان من واحد منهم إلا أن أعترض أخيراً مخاطباً المعلم ومتسائلاً: "بت أشك بأن كلبك هذا مندس ويراقب ألسنتنا!؟". ضحك الجميع وزاد نباحي، فعقب المعلم وهو يحتضنني: "اطمئنوا.. كل ما في الأمر أن ليدر كلب ذكي ويرغب مشاركتنا أفكارنا".

ربما كانت المرة الأولى التي يسمع فيها الضيوف باسمي، أو لعلهم لم يتصوروا أن صاحبهم المعلم كان جاداً وهو يناديني أمامهم بهذا الاسم. قال أحدهم: "أينهم منك لو سمعوك تنادي كلبك باسم القائد؟!".

ضحك هو قائلاً: "لهذا أسميته قائداً بالإنكليزية حتى لا يشكوا بنواياي وحرصي الوطني".

وكان أن راح الجميع بضحك متواصل أنهوه بضرب كؤوسهم الممتلئة بسائل أبيض راقبتهم يخلطونه بالثلج أو الماء ويسمونه عرقاً.

منتصف الليلة وبعد أن غادرنا الجميع، اقترب المعلم مني وفرك رأسي بأنامله ثم تمدد جنبي وكأنه جرو عملاق قائلاً لي: "أنت قائد لأنك أهل لاسمك.. أما الآخر فمزيف". ثم احتضنني وأغمض عينيه.

كنت سعيداً برفقة المعلم، وكلما مر يوم عرفت عنه أكثر. ما أن تمر مناسبة إلا ويهديني فيها شيئاً، آخرها قلادة من الفضة عليها علامة فهمت منها أنها تقليد لأثر من ميزوبوتاميا يعني القوة والقيادة، كنت وحتى وقت قريب أحملها معي، قبل أن يسرقوها مني في الفوضى التي ستعم البلاد سنوات فيما بعد.

الشيء الوحيد الذي أزعجني هو أن أرى صور من يسمى "القائد" أيضاً وهي تزين الشوارع والساحات، بل حتى البيوت والأبنية الضخمة، ما عدا دارنا بالطبع. كنت كلما اصطحبني المعلم بسيارته ونحن نجول شوارع بغداد، أبوح بغضبي نابحاً على الصور الكبيرة

لذلـك القائـد الـذي لا يحبـه المعلـم والـذي لم أحبه أنـا منذ الوهلة الأولى بسبب من أنه ينافسني على اسمي ولان حكايات المعلم عن قسوته ودمويته وتسلطه لا تسر إطلاقاً.

كنـت أنبـح عاليـاً محـاولاً القفـز من السـيارة ونهـش صوره أو التغوط على تماثيله، لكن المعلم كان يهدأني قائلاً:

"اصمـت يـا ليـدر سـتفضحنا بنباحـك.. لا تقلـق هـو لن يصل مستواك أبداً.. أنت القائد الوحيد هنا".

كانـت كلماتـه تسـرني وتلهينـي لبعـض الوقت، لأعـاود نباحي وغضبـي مـا أن نمـر مجـدداً بتمثـال وصـورة لذلـك الوجـه البغيض المسـمى أيضـاً "القائـد"، متناسـياً تحذيـرات وكلام المعلـم لأبـدأ تخطيطي مرة أخرى للقفز من السيارة فوق رأسه الحجرية.

فرصتي الوحيدة لهزيمة "القائد" الآخر كانت تتم في الدار. لم أفـوت كل فرصـة متاحـة لنهـش صوره من صحـف المعلم، وحملها حتـى الحديقـة ليرانـي الجميع، أخوتي وأمي وأبي، أنهشـها نهشـاً ثم أرميهـا عنـد قدمـي وأدوس عليهـا وأنا أنبح بكل فرح.. الفرح نفسـه الذي كان يعبر عنه المعلم وهو يراني محتفياً بنصري، بينما ينظر لي أبي نظرة توبيخ وهو يهز رأسه ومناجياً أمي كأنه يشكو لها تصرفاتي.



ما جرى لعائلتي من أحداث

عصبية جديرة بالتذكير

في الأشـهر التالية سـتتوطد علاقتي بسـيد الدار، وسيرتفع شأني عنده بأن أكون مرافقه الوحيد.

ومع ذلك لم يأتِ كل شـيء سـهلاً أو مفرحاً، فقد مرت أيامي تلك بأكثر من حادث أصاب عائلتي وشتت شملنا.

غاب المعلم برفقة أبي ليومين أمضياها بصيد الأرانب والحجل في أحراش بغداد الشرقية. كان المعلم يستغل يومي الخميس والجمعة بالرحيـل وحيـداً أو برفقـة صديق مقـرب ليتصيد أو ليمضي وقتاً طيباً بعيداً عن المدينة وصخبها. لم أكن ألاحظ على المعلم انشراحه إلا عندما يكون برفقة كتاب أو في يوم الاستعداد لرحلة صيد. كنت في كل مرة أتشبث بأبي والمعلم أن يحملاني معهما، كان المعلم يربت على ظهري ويردد جملته المعتادة: "سترافقني ذات مرة.. ولكن اليوم لا". أمـا أبـي فـكان يوبخنـي بنباحـه القوي ويعهد لي بحراسـة البيت والاهتمـام بأمـي وأخوتـي. كنت بالطبع أقوم بها بشـكل جيد، لكنني في كل مرة أصبحُ أكثر تشوقاً للمضي مع المعلم في إحدى رحلاته البعيدة.

تلـك المـرة بعـد رحيـل المعلم وأبـي، بينما كنـت أراقب منافذ البيـت وآمـر أخوتي بواجباتهم، أتيح لي الوقت للاسـتراحة والتسـلل حتى مكتبة المعلم للتمعن بالكتب الكثيرة التي تتسيد المكتبة والصالة وغرفة نومه. كانت كتباً بلغات لم أعرفها أو لم أسمع بها بعد. على المنضـدة الرئيسـية حيـث يكتب المعلم ويقرأ كتبـه، كان هناك كتابان

لا غيـر همـا القرآن والكتـاب المقدس على الجهة اليمنى، أما الجهة اليسـرى فرأيـت قاموسـاً ضخمـاً للغة العربية وبجانبـه قواميس أصغر بالإنكليزيـة والإسـبانية، اللغتـان اللتان سـمعت المعلم يتحدثهما عبر الهاتـف أو فـي أحيـان أخـرى مع ضيوفه. كثيراً مـا رأيته يحمل كتاباً بإحـدى هاتيـن اللغتين ويمضي الوقـت الطويل معها أما مردداً بعض عباراتها أو باحثاً عن معنى لها بلغته العربية.

كنت في كل مرة أراه ضاحكاً، متأملاً أم صارخاً بعد قراءة طويلة ليكلمني ويشرح لي ما قرأ للتو. بين حين وآخر كنت أفهم ما يقوله بهاتين اللغتين فأنبح مؤكداً أقواله لأجده يبتسـم ويمسـد رأسـي برقة. المدهش في الأمر أنني ما أن أمضي محاكياً المعلم وهو يتحدث اللغة الإسبانية، حتى أرى أمي مندهشة مسرورة وهي تجيبني بإسبانية شبيهة بما يقرأه ويقوله المعلم. كانت تفرح كثيراً وهي ترى اهتمامي بذلك وتقول لي: "سعيدة أن أحد أبنائي قد تعلم لغة آبائي!". عرفت منها أن أصولها إسـبانية وتدعى (سابويسـو) من صنف كلاب معروفة عاشت لآلاف السنين في شبه الجزيرة الإيبيرية، نشطة مرحة بعينين حزينتين أكتسـبتهما منها. أمي هي الوحيدة من عائلتها التي حالفها الحظ بأن أختارها المعلم في إحدى رحلاته إلى إسـبانيا، وكان أن حملها معه حتـى بغـداد ليكـون محـل إقامتهـا الأبـدي. في بغداد سـتتعرف بأبي السلوقي الأصل، وهو من فصيلة كلاب نادرة عاشت لآلاف السنين في ميزوبوتاميا، واسم السلالة جاء من الملوك السلجوقيين وقد ورد ذكرها في أغلب النصوص التاريخية، مما يعد أكثر الكلاب أصالة في المنطقة. إضافة إلى أن السـلوقي صياد ماهر، فهو كلب صارم قوي، وهو ما ورثته عن أبي. تزوجت أمي بأبي في هذه الدار نفسها، ونحن (أنا وأشقائي) بطنها الثانية - كما يقال - بعد أن أنجبت سابقاً كلبتان أهداهما المعلم لصديقين له ولم ترهما بعد ذلك.

كنت أتعلم على يدي المعلم ما يذكره لي بالإسبانية، لأمضي حتى خص أمي ونبدأ بالتناجي وتكرار العبارات. وكانت في كل مرة تحكي لي عن إسبانيا ومدريد والجنوب مسقط رأسها، حكايات عن الطبيعة والبشر والأكلات وكيف يمضي الناس أوقاتهم فراغهم وعن مكانة الكلاب هناك وكيف رأت بأم عينها كلاباً تركب الباصات والعجلات وترتدي ملابساً كالبشر تماماً، كما حكت لي عن كلاب شهيرة تمثل في السينما وتظهر كنجوم معروفة عبر التلفزيون. كانت في كل مرة تتذكر بساتين جنوب إسبانيا تلمعُ في عينيها الدموع وتقول:

"كل واحد منا ابن لبلده.. البعض الآخر مثلي ابن لأكثر من بلد وأرض، لكنني ما زلت أحن لأهلي".

ثم تروح في موجة حنين تحملها حتى أماكن لا يمكنني أن أحزرها، بعدها أسمعها تردد أبيات من قصائد عن نهر يسمى (الوادي الكبير) كانت قد حفظتها عن أمها السابويسو العالمة والمحبة للشعر، أذكر منها ما كانت تلقيه بصوت شجي مخنوق بالعبرات:

هناك في الأعماق
ما بين السماء والشجر
يتغنى الموج مترجرجاً وينوح:
تُرى منْ خطف حياتك
بالقرب من نهر الوادي الكبير؟

ما كان يلهيها عن وضعها هذا - وهو ما أعترفت به لي - بأنها تعيش اليوم بالقرب من نهر آخر هو دجلة، وإلا فلن تحزر كيف ستكون عليها حياتها لو افتقدت للنهرين معاً.

ما أن خيم الليل حتى تجهزت بانتظار عودة المعلم وأبي. لكن الساعات تمر ولم يحضرا بموعدهما المرتقب. حينذاك كنت جائماً

عند البوابة أقوم بحراسة البيت، بينما مضت أمي وشقيقتاي إلى خصهن، طلبت من شقيقي أن يبقى عند مرسى النهر المجاور للبيت ليحرسه من أي دخيل. كنا ننبه بعضنا البعض بنباح لا يفهمه سوانا، إشارة سرية تعلمناها ولا يفقهها غيرنا. شيفرة التواصل هذه بقيت إشارتنا الخاصة حتى وقت طويل لم أنسها ولم ينسها شقيقي. كل نصف ساعة نتنادى ونكرر الخطاب ذاته. لم يمر سوى وقت قصير حتى سمعت نباحاً غريباً يصدر عن شقيقي لم أسمعه حتى الآن، خرجت أمي وشقيقتاي من خصهن يستطلعن الأمر، فما كان مني إلا أن تركت البيت ومضيت جرياً ناطاً ما بين الأحراش المحيطة بالبيت وصولاً حتى حافة النهر. هناك وجدت شقيقي غاطساً بنصفه في النهر وإحدى أقدامه مشكوكة بأسلاك شائكة غرزت مساميرها الصدأة في قدمه الخلفية. كان يتألم شاكياً ولكن صبوراً يحاول أن يفهمني أن لا شيء خطير قد حدث. رؤيتي لقدمه مشروطة لنصفين وقد قصتها الأسلاك الشائكة لم يطمئنني كثيراً.

حاولت تخليصه من الأسلاك بكل قوة بينما عيناي تراقبان قدمه الخلفية المدماة. لمحت وجه شقيقي وهو ينوح فما كان مني إلا أن سحبته حتى الضفة وبسرعة حملته على ظهري وصعدت به حتى خُص أمي. هناك حاولت أمي أن توقف نزيف قدمه. نظفتْ قدمه بالماء ولحست له جرحه طويلاً ثم لفته بورق شجر الخروع التي كانت قد علمت عن طريق جدتها بقدرته على تطبيب الجروح البسيطة. لكن جرح قدم شقيقي كان كبيراً، وكان علينا أن نبدل الأوراق كل حين بانتظار عودة المعلم وأبي.

لكنهما لم يعودا بموعدهما المعتاد. وصلا صباح اليوم التالي.

كان شقيقي قد همد من الآلام ونام. جرحه لم يعد ينزف وإن كان جرحاً بارزاً لن يلتئم بسهولة وسيترك آثار عرج واضح لا

محالة. الأسوأ من كل هذا أنني ما أن لمحت سيارة المعلم وهي تدخل كراج البيت صباحاً حتى هرعت راكضاً باتجاهه نابحاً ومنبهاً لما جرى لشقيقي. وقبل أن ألمح المعلم منتبهاً لندائاتي الملحاحة، تركني ومضى حتى حوض السيارة ليحمل أبي بين يديه بوجهه الغافي وبطن مبقورة مدماة وملفوفة بالشاش الأبيض الذي غدا بلون أحمر قانياً. كانت مفاجأة كبيرة لي وأنا أرى أبي بهذه الحال. مضيت خلف المعلم حتى الدار ورأيته كيف يضع أبي على البساط الأرضي بالقرب من كرسيه المفضل، ومن ثم ينحني قربه مناجياً ومصبرّاً. كان أبي منطرحاً على البساط بالكاد يفتح عينيه والمعلم يربت على رأسه مواسياً.

لم أتذكر بعد ذلك ما جرى لشقيقي، فقد كنت مثل المعلم راقداً على الأرض أترقب عودة أبي من إغفاءته.

في ذلك اليوم علمت على لسان المعلم كيف أن أحد الغرباء ومن مكان غير معلوم - بدلاً من أن يصيد الأرانب - أطلق رصاصه باتجاه أبي وهو يهم بملاحقة أرنب من ضمن أرانب عديدة صوبها المعلم نفسه. بلمحة عين وجد المعلم وأصدقائه كيف يسقط أبي السلوقي مضرجاً بدمائه وفي فمه آخر أرنب بري منقط.

لم يعلموا بالطبع من قام بالفعل ذاك. بحثوا عن مصدر الإطلاقة ولم يهتدوا للفاعل. كان المعلم متأكداً أنها جاءت من جهة مزرعة قريبة، ولكنه لم يستطع فعل شيء. حملوا أبي بسرعة ومضوا حتى أقرب بيطري لينقذوه من موت مؤكد. أمضوا الليل كله بمداواة أبي، وإن أنقذوه من موت وشيك، إلا أنه لن يستطيع بالتأكيد معاودة نشاطه وجريه خلف الأرانب البرية السريعة ولن يكون نافعاً بعد ذلك بمرافقة المعلم في رحلاته عبر الأحراش بحثاً عن الطيور المعششة والحجل المتخفي والخنازير النافرة، ولا بالطبع الأرانب الجريحة

بعيداً عن أوكارها.

إزاء كارثة ما أصاب أبي، لم تعد حادثة جرح قدم شقيقي بالشيء الكبير. وكلنا منذ ذلك اليوم ستمر بحياتنا تقلبات كثيرة وأمور غريبة.

بعد أسبوعين رأيت المعلم حاملاً شقيقتاي ليهديهما لصديقين، أحدهما في مزرعة بعيدة عن دارنا، والآخر في مدينة أخرى. أما شقيقي الذي أصبح أعرجاً يتعكز بمشيته بسبب جرحه في قدمه الخلفية، فلم يعد له مكاناً بيننا، فكان أن أهداه المعلم لصديق آخر هاو، لعله بتزاوجه مع كلبة سلوقية أخرى أن يخلفا جراءً من فصيلة الصيادين مثل أبي.

بقيت لوحدي برفقة المعلم، بينما يمضي أبي استراحة طويلة برفقة أمي في خصهما.

كنت في كل مرة أراقب أبي ذاوياً حزيناً لا قدرة له على الحركة والكلام وجل ما كان يفعله مراقبة النهر ومناجاة أمي بهمس خفيف لا يعلمه أحد سواهما.



كيف أصبحت مرافقاً للمعلم
وكاتماً لأسراره

أصبح البيت فارغاً بعد رحيل أشقائي، كل إلى وجهة لم أتبينها ولم يخبرني عنها أحداً.

قلت دوريات عمل أبي الذي لم يعد قادراً بالمرة على الحراسة والقفز ومرافقة المعلم في رحلاته البعيدة، فكان قد اكتفى بالتواجد قرب أمي، كلاهما يحرسان البيت أثناء خروجاتنا واختفائنا في جولة صيد جديدة أو رحلة إلى مدينة أخرى. لم أستطع التعود بسهولة على نسيان أشقائي. كل تلك الأشهر الأولى التي أمضيناها سوية باللعب والشجار واستكشاف النهر والمزرعة ومطاردة العصافير والقطط هنا وهناك. كان صعباً عليّ التكيف على النسيان.

الأيام كنت قد أمضيتها أغلب الأوقات في دار المعلم. كان قد سمح لي بالنوم في زاوية في الصالة عندما يتأخر الوقت ليلاً ونكون فيها بلهو قراءة رواية جديدة أو مشاهدة التلفزيون ومتابعة الأخبار، حتى إنني اعتدت أخيراً على هجر خُصي في حديقة الدار والانتقال نهائياً إلى دار المعلم.

كان المعلم في كل يوم يعلمني شيئاً جديداً، وفي كل مرة أسمعه يكلمني عن أسراره الشخصية ومواقفه السياسية. في تلك الجلسات عرفت معنى (السياسة) ومعنى (المعارضة والاختلاف)، وسمعته يكرر كلمة (دكتاتور) وهو يشير لذلك المسمى أيضاً بالـ"القائد". لكنه في أكثر اللحظات حميمية، كان يستذكر زوجته وولديه. كنت حتى تلك اللحظة لم أسمع بهم ولم أسمعه يتحدث عنهم، على

الرغم من أنني قد لمحت صوراً لامرأة شابة وولدين صغيرين تزين مكتبه وجدران الغرفة. لم أتصوره يوماً مع عائلة أو برفقة آخرين لطالما رأيته وعشت معه وحيداً يمضي أيامه ما بين كتبه وكأسه ورحلات صيده.

في ليلة ما نهضت على أصوات في غرفة المعلم العلوية. كنت غافياً في الصالة الأرضية بعد أن عِدنا مساءاً من رحلة صيد. كنت منهكاً ولم أسمع صوتاً خارجياً يدل على تسلل أحد إلى الدار. ولما لم يبدر أي شيء من المعلم، فكان أن نهضت بخفة وصعدت الدرجات حتى الطابق العلوي الذي على ما أذكر أنني قد دخلته مرتين لا غير في كل أيام تواجدي هناك. قبل أن أصل الصالة العلوية، لمحت ضوءاً في مكتب المعلم. حاولت قدر الإمكان أن لا يبدر مني أي صوت لأفاجئ المتسلل للبيت كي لا يبدي أية مقاومة. كنت متأكداً أنني قادر لوحدي وبمهارتي في القبض على السارق. كل نباهتي واستعدادي راحت أدراج الريح (أو الليل البهيم)، لم أرّ أحداً، كان المعلم جالساً على كرسي وهو يتفرج على التلفزيون بينما تندُ عنه تنهدات وتساؤلات وسمعت ما يشبه نشيجاً متقطعاً. اقتربت أكثر من المكتب ورفعت رأسي قليلاً لألمح ما الذي يفعله المعلم في مكتبه. هناك راقبت المشاهد تمر عبر الشاشة، والمعلم بين حين وآخر يقترب من التلفزيون ويقبلُ الوجوه التي تتكلم للكاميرا؛ طفلان يلعبان في الحديقة ويقتربان من الكاميرا كثيراً لدرجة الالتصاق ويتحدثان مع المصور بلثغة طفولية لا تفهم. راقبت المعلم جالساً على الأرض عند أقرب نقطة من التلفزيون، وكنت من مكاني الآن أرى الوجوه بشكل واضح. رأيت امرأة شابة تحمل طفلاً، وطفل آخر متمسك بيدها وهما يجريان؛ المرأة لوحدها؛ الطفلان يلعبان ويصرخان؛ ثم لمحت وجه المعلم، كان ما يزال شاباً، وهو الآن

برفقة الطفلين، يلعب معهما الكرة ويمازحهما ويجري خلفهما. كل هذا رأيته وانا أسمع نشيج المعلم وعتابه بكلمات لم آلفها منه.

انسحبت بخفة مثلما جئت تاركاً المعلم لوحده في مكتبه.

حاولت النوم ولم أستطع فخرجت حتى الحديقة. رحت أجري وحيداً ما بين الأحراش والأشجار حتى أقرب ضفة من النهر. هناك غطست بجسدي واغتسلت وعديت من جديد ما بين الأحراش والقصب المتطاول موقظاً الطيور النائمة والحيوانات اللابدة في مخابئها.أمضيت ساعة أو أكثر بقليل حتى لمحت الشمس تبرز برأسها، ساخنة ورائعة المحيا كقطعة من ذهب خرجت من المصهر تواً.

عندما رجعت إلى الدار وجدت ابي بانتظاري ووبخني لغيبتي. عندها أدركت حركة غريبة في البيت، ولمحت في الساحة الأمامية سيارتين عرفت فيهما واحدة لصديق اعتاد السهر مع المعلم، والأخرى غريبة وجديدة بالنسبة لي. قبل أن اهم بالدخول منعني أبي وأسرني أن السيارة الأخرى لطبيب جاء به صديقه، فعلى ما يبدو أن المعلم قد أصيب بوعكة شديدة الليلة الماضية أفقدته رشده مما تطلب حضور الصديق برفقة الطبيب ليعالجه. فهمت كذلك أن المعلم دائماً ما كان يقع صريع حالة عصبية بين حين وآخر، مما يتطلب مراجعة أحد الاطباء وعلاج أيام مع تناول مهدئات يمضيها المعلم بفترة نقاهة على أن يعين له منْ يهتم بأموره الأخرى. في هذه الحالة تبرع الرجل وزوجته من شمال البلاد واللذان يسكنان في مزرعة المعلم، بالاعتناء به.

بعد أن مضى الصديق والطبيب، تسللت دون أن يلمحني أحد وصعدت حتى غرفة المعلم لأطمئن عليه. رأيته راقداً في فراشه، نائماً بعمق حتى إنه لم ينتبه لنباحي ولم تبدر عنه أية حركة وأنا ألحس له

يـده وأحركـه بشـدة. ما أن كررت محاولاتـي وهذه المرة بنباح أعلى حتى حضر الرجل وزوجته اللذان يعتنيان الآن بالمعلم وبيته وركضا باتجاهـي وطردانـي مـن الغرفة. هبطت راكضاً حتـى الحديقة لأواجه أبي وامي كي أفهم منهما ما يجري. كانت الدموع تملأ عيني أمي أما أبي بوجهه الجاد فقد كان متأثراً بشكل كبير وإن لم يحاول أن يبدي أي أنفعال. طلبا مني التروي وحكيا لي ما عرفته عن الأستاذ وعائلته.

أخبرنـي أبـي - وهـو الـذي عاش معه أغلب سـني حياته - بأن المعلـم يعيـش لوحـده بعد أن فقد زوجته الشـابة التي أحبها وضحى بدراسـته في إسـبانيا من اجل العودة والزواج بها في بغداد. كانا قد عاشا بسعادة وأنجبت له ابنه البكر بعد سنة من زواجهما، ومع حملها الثانـي بـدأت صحتها تتدهور، فكانت أن أنجبت الابن الثاني لتموت بعـد ذلـك بيـوم واحد، وقد فقـدت قوتها ودمها حتـى فارقت الحياة فـي المستشـفى. عـاش بعدهـا المعلم بحزن دائم ولـم يرتبط بغيرها، وصرف جل وقته بعمله وتربية ولديه. كان ناشـطاً سياسـياً معارضاً، جرجروه لأكثر من مرة من سجن لآخر ومن استجواب لآخر، ليترك كل شيء بعد ذلك متفرغاً لولديه حتى كبرا وشبا وخوفاً عليهما من أن يموتـا فـي الحـروب المتتالية التي دخلها "المسـمى قائـداً أيضاً". هـرَبَ المعلـم ولديـه إلـى أوربا كي يعيشـا بأمان، وكان يرسـل لهما النقود بين حين وآخر آملاً نفسه بتغيير سريع في البلاد كي يعود يوماً ما لرؤيتهما. لكن كل آماله تنتهي بالفشـل وهو يرى ذلك "المسـمى قائداً أيضاً" متشـبثاً أكثر وأكثر بكرسـيه ولا يتوقف من إدخال البلاد في حروب وظروف أبشع وأشرس من الأولى. كان سعيداً لأن ولديه يتمتعان بصحة وراحة بال بعيداً عن محرقة "القائد"، لكنه كان يحن لهما كثيراً هما وأمهما المتوفاة، فما أن يدخل في حالة جديدة حتى يسـقط مريضاً لأيام قد تطول لأسـابيع. وهذه هي حالته منذ أن عرفه

أبي وعلى الجميع بعد ذلك أنتظار قيامه من جديد.

مضت الأيام بطيئة والمعلم ما زال في رقاده. لم اتجرأ بعد ذلك على الدخول لطالما أن رجل الشمال وزوجته يحرسان البيت. لكنني كنت أتسلل ليلاً دون أن يحسا بي واقترب من سرير المعلم كي أترك عن رأسه كتاباً مما أستله من المكتبة، واحداً من تلك الكتب التي يحبها والتي قرأناها سوية أكثر من غيرها.

أيامي لم يعد لها من بداية ونهاية سوى انتظار خبر شفاء المعلم.

ما أن بدأت أفقد الأمل برؤية المعلم صاحياً في فراشه والاستماع لخشخشة رواحه ومجيئه في الدار أو تجواله في الحديقة، حتى جاءني صوته من خلف الخص وهو يبحث عني فاتحاً يديه ليحتضنني مردداً جملة لم أسمع أحلى ولا أكثر صدقاً منها: "آه أين أنت يا ليدر، لقد افتقدتك طويلاً يا صديقي!".



كيف تعلمت بظرف شهور ما
لن أنساه في أعوام

الأيـام التـي تلـت فتـرة نقاهـة المعلم - وقد طالت لأسـابيع - كانت رفقتي للمعلم تزداد حميمية.

كنـا نتغيـب لأيام طويلة ما أن تسـنح الفرصة، ووجهتنا التجوال في مدن البلد من شـماله حتى جنوبه. صحبت المعلم المتيم بالآثار مـن بابـل وعقرقـوف حتى عاصمة آشـور، دون العودة للبيت قبل أن نمر بكل شبر من أور. في ظرف أشهر أخرى مضينا من مقاطعة إلى أخرى، مروراً بقرى ضائعة في الشمال أو الجنوب أو الوسط لمجرد أن يريني أثراً يدل على عظمة هذه الأرض التي يسميها (ميزوبوتاميا). يضرب صدره أمام كل مشهد وهو يقول: "ياه ما أروعها.. وما أتعسنا ونحـن لا نهتـم بهـا الاهتمـام الحقيقي!". ثـم يعقب وهو يحدق بدقة في نقطة بعيدة لا ترى ولا تدرك: "كل شـبر تحتنا يضم آلاف الآثار يا ليدر، ولكن ما الفائدة مع بشر لا يقدرها".

كان مزهواً وهو يحدثني عن كل أثر، القصور الموغلة في القدم، تماثيل لآلهة وملوك وأميرات بأنصاف أنوف من ذهب، بيوت الطوب التي كانت تسـمى ببيوت الأدب والأسـوار المنيعة للممالك القديمة. وقفنـا مطـولاً عنـد آثار آشـور وشـرح لي كل ما يعرفـه عما تبقى من بيـوت آدابـا التـي شـكلت أكبـر مكتبة فـي العالـم في وقتهـا. برفقته أمضيت أسـبوعاً في الجنوب، فحملني في مشـحوف رفيع حتى ابعد نقطة في أهوار المياه الشاسعة، وهناك وقف مشيراً إلى نقطة لا تُرى: "هذه أرض السومريين، من هذه البقعة علموا العالم الكتابة". لألمح

ابتسامة لا أروع منها ترتسم على وجهه وهو يقول جملته تلك.

كنت متلهفاً كأي تلميذ لمعرفة المزيد، والمعلم برؤيته سعادتي واهتمامي البالغين، كان يردد على سمعي المزيد مما يعرفه عن أرض العراق. لم نغادر أهوار أور بالطبع دون أن نمارس الصيد المفضل لمعلمي، هذه المرة جربنا (وهو ما أخبرني به المعلم بالطبع) ما كان يقوم به أولئك البشر القدامى من صيد ما يدعونه بـ(دجاج الماء) الشبيه بالبط، طير الأهوار بلا منازع والذي لا شبيه له في كل العالم، المعشش بكثرة في قصب وأدغال الهور. كنت في ركضي خلف تلك الدجاجات المتطايرة هنا وهناك وأنا بالخلف منها غائصاً في المياه الضحلة، أشعر بنفسي كلباً سلوقياً لا يختلف عن تلك الكلاب التي جابت هذه الأراضي منذ آلاف السنين، ناطاً بين بيوتها الطافية وأدغالها مطارداً الطيور ومفزعاً الحيوان اللابدة في أحراشها.

الأوقات الأخرى التي لا نرغب فيها بالسفر بعيداً، كان يحملني معه إلى أقرب معرض فني أو قراءة شعرية أو رؤية لفيلم أو مسرحية، لكننا كنا نستمتع كثيراً بزيارة المتحف الوطني، الذي كان فارغاً كالعادة لا يزوره إلا القلة مثلنا، مما يمكنني القول أنه كان مشرع الأبواب لنا وحدنا لا غير. هناك لمحت للمرة الأولى قطع الطين المشوية التي ضمت كتابات وكتب العالم الأولى. أخبرني أن اسمها "كتابة مسمارية"، ومن هنا أدركت سر القلادة التي أهداني إياه المعلم، لم تكن سوى رموز وأحرف مسمارية. في زاوية من المتحف بالقرب من الجناح الشرقي، رأيت صور أجدادي الأوائل في جدارية حجرية لا مثيل لها.. رأيت صورتي من خلال عيون أجدادي، صورة تشهد على رحلتنا مع ناس هذه الأرض منذ آلاف السنين.

في ليالي الصيف الطويلة الحارة كنا نخرج حتى الحديقة وبالقرب من دجلة ليداعبنا نسيمه العليل، يمضي المعلم بقراءته

لفصول من كتب لأسماء كتاب إنكليز، هنود، فرنسيين، فرس وعرب وإسبان، فضلاً عن حكايات منتخبة عن حيوانات تصف ما يجري لها في كليلة ودمنة وأخرى غيرها. لكنني كنت في كل مرة أكثر حرصاً بأن يعيد على أسماعي حكاية كلبي ثربانتس المدعوين (رنكونيته وكورتاديو) ومغامراتهما العتيدة. كنت أتلهف أكثر وأكثر وأنا أسمع عن كلبين من جنسي يحكيان مغامرتيهما بتفاصيل مهولة، وكثيراً ما رأيت نفسي حالماً بأن أعيش ما عاشاه أو على الأقل أن يكون لي في يوم ما تاريخاً أدونه ويقرأه من بعدي كلاب وبشر العالم أجمع.

في مرات رحت اتساءل عن أصولنا وكان المعلم يجيبني بما يشفي غليلي، لأفاجئه اليوم التالي بطلب ورغبة أكبر. تعلمت منه الشيء الكثير من الإنكليزية والإسبانية، وكان يسمح لي كل ليلة بانتقاء أي كتاب شعري، لينشد لي منه بصوته الأجش المغرق بالحزن أبياتاً كانت تحملني معها إلى عوالم لم أحضرها بعد: تخيلت عبرها الصحارى والجمال، الأنهار الطويلة التي لا مصب لها، عن البدو الرحل وناس الجليد، عن بشر الغابات والأحراش والمغارات والبحار العميقة البعيدة التي يتطلب الوصول لها الركض لأشهر بلا توقف. كان عبرها تمضي أشعار العشق والغرام وآهات القلب دون عائق.

في ليلة ونحن نقرأ فصولاً من (الدون كيخوته) كتابه المفضل، توقف المعلم للحظة بدت لي أبدية وأسرني قائلاً:

"هل تعرف يا ليدر لماذا عدت للعراق؟ لماذا هجرت إسبانيا التي أحببت؟ قد تقول أنه الحب؛ نعم هو ذاك... وأشياء أخرى. لقد جبت بلداناً عديدة وعوالم شيقة. تعرفت ببشر وخضت تجارب شارفت فيها على الهلاك وأخرى تركت ندوبها في جسدي. لكنني في كل ذلك المران الطويل من الحياة، مرات عديدة نجحت فيها بتحقيق هدفي وأخرى فشلت فيها فشلاً ذريعاً، عبرها أدركت اننا لا نأخذ

أكثر مما خصصته لنا الحياة. البعض يسميه القدر أو المكتوب، أما أنا فأسميه الطريق.. الطريق الذي نمضي به ونخطه لأنفسنا.. لتعلم أن لكل واحد منا منذ ولادته حتى مماته طريق واحد لا غير شاء أم أبى، سيقطعه لوحده أو برفقة، وعليه فوق هذا أن يكون ممتناً لهذه الحياة، ذلك اننا محظوظون بهذه الهدية النادرة. الحياة هبة!".

كنت في كل أيام حياتي التالية بعد تشردي وتغربي عن الدار، متجولاً في أرجاء الأرض، لم أنس لمرة واحدة نصيحة المعلم تلك وكنت أستقبل يومي - كيفما يكون - برغبة احتضانه والمضي حاسباً ما تبقى لي من خطوات قادمة، هي خطوات طريقي الخاص. طريقي المحسوب لي دون سواي... الآن مثلاً أتذكر أبيات ذلك الشاعر المسمى ماتشادو، ويمر على خاطري صورة المعلم مردداً لازمته الشهيرة تلك وهو يهز برأسه هزاً من الطرب:

"الطريق نخطه بخطواتنا، الطريق".

يوماً بعد رجوعنا من إحدى جولات الصيد المعتادة، تفاجئنا بعدة عجلات تسد بوابة الدار.

ما أن ترجل المعلم وانا من خلفه حتى صرنا بمواجهة رجال غامضين يرتدون بدلات متشابهة، لم تكن بالعسكرية ولا المدنية، لهم سحنات قاسية ويتحدثون بلغة الأمر. سمعت قائدهم يخبر المعلم قائلاً:

- لقد قررت الدولة مصادرة الأرض الزراعية المطلة على النهر لضرورات أمنية. عليك منذ يوم غد إخراج كل منْ يعمل عندك ونقل المعدات إلى البيت. ستكون هناك وحدات حراسة خاصة في المزرعة. لا مجال للمماطلة بالتنفيذ، إن كان لك حق طالب به في المحكمة. لقد سمحوا لك مؤقتاً وحتى إشعار آخر البقاء في البيت... البيت وحسب... كل منْ يدخل سيدون اسمه وعليك أن تحترس كثيراً.

كنت على وشك أن أبادر المتكلم بعضة في رقبته، لكنني لمحت إشارة يد المعلم، كما أن أبي عالج الأمر بأن سحبني حتى ألخُص برفقة أمي وأمرني أن لا أتحرك.

سلم الرجال المتشابهون ورقة الأمر إلى المعلم ومضوا بعجلاتهم. ما أن غادرونا حتى رأيت المعلم يدخل الدار، ليخرج بعد لحظات برفقة كأسه وجلس في منتصف الحديقة مدخناً ومتأملاً مزرعته الهادئة - أو ما كانت حتى اليوم مزرعته - بعدها أخرج ورقة الأمر، مزقها ثم رماها على الأرض وداسها بقدمه.

لم أعرف كيف أتصرف وقتها لذا بقيت راقداً قرب أمي وابي. وتشاغلت طوال الوقت بالتفكير بما سيحل بالمعلم وبنا. أبي الذي كان قد هرم كثيراً، ربت على ظهري ولمحت على وجهه الجاد تعابير مَنْ عاشَ دهراً وقد تعود على أوضاع مماثلة وكأنها صورة مكررة عن أزمنة سابقة.



سرد ما عرفته عن عائلة المعلم وما جرى لهم مع "ذلك المسمى قائد أيضاً"!

أسابيع بعد مغادرة زوار الليل لبيت المعلم، لم نخرج في أية جولة أو رحلة صيد. أمضيت جل وقتي في الصالة مراقباً المعلم في حمى متسارعة يقضيها بالكتابة في دفتر أو دفاتر صغيرة كان يحفظها بعد الانتهاء في خزانته الخاصة ويقفل عليها بمفتاح لا يفارقه. فهمت منه أنه قد قرر كتابة مذكراته لعلها تفيد منْ يأتي بعده حال الخلاص من ذلك المسمى "قائد" أيضاً.

رأيته حزيناً جداً وهو يودع العائلة التي عاشت في مزرعته. لم يكن بيده شيء أو هذا ما حاول تبيانه لهم، كان مجبراً على الرضوخ لأوامر حكومية غامضة. حاول وهو يودع العائلة المسكينة أن يشد من أزرهم ولمحته يمنحنهم مالاً عله يعينهم بتشردهم الجديد. كما أنني لمحته يحدث الأب على أنفراد ويدس في جيبه ورقة كتب عليها عنواناً لصديق له في الشمال مع بضعة كلمات في رسالة قصيرة يرجوه فيها مساعدتهم.

يبدو أن المعلم كان معتاداً على تصرفات كهذه. بل حكى لي أبي أطراف حكايات لم أعرفها بعد.

سمعت منه أن عائلة المعلم كانت من أعيان بغداد أباً عن جد، وقد ملكوا تقريباً كل المزارع المطلة على نهر دجلة من أقصاها حتى أقصاها. لكنهم بدأوا يفقدونها تدريجياً بقرارات حكومية بحجج لا تخرج عن مسألة الضرورات الأمنية، تلك الأحجية المخيفة التي يستخدمونها في كل شأن. كانت عائلة المعلم ترى نفسها يوماً بعد

آخر بدون أملاك، تتناقص أراضيها دون أن تنتفع بشيء من الحكومة التي لم تتعب نفسها ولو بشرح بسيط لما يجري. كان عليهم أن يرضوا بالوضع دون اعتراض وهم يرون عائلة "ذلك المسمى قائداً أيضاً" وأهله وصحبه ومقربين له يستولون على أراضيهم ويقيمون عليها قصورهم ومنازلهم الترفيهية. في ظرف سنين قلائل فقدت العائلة كل أملاكها ولم يبق لها غير هذا البيت والمزرعة التي يقيم المعلم فيهما.

كان "ذلك المسمى قائداً أيضاً" وجماعته قد استحوذوا على كل الأراضي القريبة من دجلة، وكان في كل مرة يتعللون بالضرورات الأمنية. وكل سنة كنت ترى القصور تتشيد، والنهر يضيق. لم يسمحوا لأحد بالبقاء عند أطراف دجلة. كانوا يهددون أهاليها، يضمون أراضيهم لممتلكات شخصيات أخرى، يهدمون بيوتاً بغدادية عريقة ويشيدون عليها قصورهم المريعة. كانت الناس تهرب بجلودها، وكانت قصورهم تتكاثر، ولما لم يجدوا أراضي أكثر بدأوا يضيقون على النهر، يستقطعون منه ما يشاؤون دون أن يحاسبهم أحد. في النهاية بات ناس المدينة يتحسرون على فسحة يطلون منها على النهر الذي يقطع المدينة إلى نصفين. على الرغم من كل ذلك، كانت عائلة المعلم واحدة من العوائل المحظوظة بأن ظلت تمتلك لها بيتاً وإن لم يقع مباشرة عند نهر دجلة، فله من الزاوية الخلفية ما يمنحه ممراً ومسرحاً يطل على النهر.

جراء ذلك تشتت أخوته ومات أبوه غماً بعد أن قتل شقيقه الأصغر في حادث غامض تأكدوا فيها من أن يد الحكومة كانت وراء ذلك. لم يبق غير المعلم صامداً متحدياً لهم. لقد سمعه أبي وعدت لسماعه بنفسي بعد ذلك بسنين بأنهم يفعلون كل ذلك حتى يجبروه على التخلي عن أرضه والهرب مثل الآخرين، لكنه في داخله

يضحك منهم ويصر يوماً بعد يوم بالبقاء في بغداد حتى لو نهبوا كل ما يملك. سمعته يردد دائماً بأنه جالس لهم ها هنا ولن يبرح مكانه أبداً فقد قص جناحيه لكي "يحرس أعشاش الطيور المهاجرة".

كان يمني النفس بخلاص قريب وعدالة قادمة ذكرتني فوراً بصاحبنا "الدون كيخوته" الذي طالما قرأ لي فصولاً من مغامراته وإصراره على المطاولة حتى النهاية ومهما كلف الثمن. لم ار المعلم معلقاً بأذرع طاحونات ولا غرف نزل مسحورة، لكنني كنت في كل مرة ألمح في عينيه شرارة من تلك التي تقدح في عيني الدون كيخوته وهو يمضي بنزاع جديد وهدف لا يؤمن به أحد سواه. كنت في كل أوقات وحدتنا المشتركة، أراه متشبثاً بما ينوي فعله دون أن يحبطه أي شيء. أتخيله فعلاً مثل فارس المحيا الحزين، فارس من القرون الوسطى، متأبطاً رمحه وممتطياً فرسه روثينانته، منادياً على عفاريت "القائد" وأشراره أن يخرجوا من مخابئهم كي ينازلوه. كنت وهو في فورة أعماله وقراراته وكتاباته وما يسرده لي وما يأمله لبلده من تغيير، أراه شبيهاً بصورة المنقذ الذي لا يتنازل عن تحقيق العدالة ولو بعد حين.

غير ذلك كنا مستمرين بتسليتنا الوحيدة خارج البيت.

كنت في كل مرة أزداد مراناً وخبرة في مطاردة الأرانب واقتناص طيور الحجل مما يسر معلمي ويذكرني بأنني مع مرور الأيام سأتفوق على أبي السلوقي بذلك. كان أبي في أيامه الأخيرة وقد أقعده المرض والشيخوخة لا يتأخر بتهنئتي وهو يسمع المعلم مشيداً بقدراتي. كنت في كل مرة ألمح فيها أبي راقداً قرب أمي في خصهما، أجدني أكثر شبهاً به يوماً بعد آخر. رغم عجزه الظاهر وضمور جسده، كان ما يزال محتفظاً بعظمة ذلك السلوقي الذي كان، مهيباً، طويلاً، برأس دقيقة وضيقة، وبطفرات محسوبة تكتشف خفة حركته وسرعة تفاعله

مع الحدث بشكل لا يوصف على الرغم من أن قدميه لم يعودا قويتين مثلما كانا عليه في شبابه. رأسي الضيقة الدقيقة وأنفي بلون القهوة وأسناني الحادة القادرة على قضم حجر وتفتيته بضربة واحدة، كلها ورثتها عن أبي. عن امي ورثت لمعان العينين وبارقة الحنين والحزن اللذان يفضحانها في كل لحظات تأملها ووحدتها. هذا هو تماماً ما كان يشكك الآخرين بقدراتي في الصيد ما أن يلمحوا تعابير وجهي المغرق بالحزن واللهفة لأثر ضائع. لكن المعلم كان يضحك منهم وهو يراني أسابق كلابهم الضعيفة والفوز بأكبر قدر ممكن من طيور الحجل والأرانب التي تتساقط أمام قدمي دون جهد كبير. بل أنني وقد أطلقني المعلم خلف سرب من طيور الحجل، عدت له بدلاً عنها بـخنزير بري ضخم أقرب لـ"عجل ناشز" على حد قول المعلم وصحبه... وهي الحكاية التي لم يملْ المعلم من ترديدها! حكاية تسر المعلم وتجعله فخوراً بقدراتي والتي طالما كررها على مسامع الجميع، وكان في كل مرة يسردها بتشويق أكبر. سمعته مرة يقول التالي حتى انني أندهشت تماماً من بلاغته في وصف معركتي مع الخنزير البري وصدقت تماماً بكل ما قال وأصبحت حكايته مطابقة لخيالي ولم أند عنها... سمعته يقول:

"كنت قد أطلقته خلف سرب من طيور الحجل، وكنت متأكداً أنه سيعود بغمضة عين قبل كلاب الآخرين كما عودني. لكن الوقت مر ولم أسمعه ينبح عن بعد ولم أرّ طلته وقد غاب لساعة أو أكثر بقليل وقد سبقته الكلاب الخائبة الأخرى بالعودة.. وهو ما أقلقني. صفرت له وصرخت باسمه دون جدوى. ظللت أنتظر مكاني قلقاً وبالوقت نفسه حزيناً وغاضباً إزاء تلميحات الآخرين وتندرهم من ليدر ومني. سبقني الآخرون بالعودة إلى سياراتهم على أن ينتظروني هناك لنعود سوية فيما بعد. كنت مصراً على عدم مبارحة مكاني حتى

عودة ليدر. كنت واثقاً من أن شيئاً قد جرى له، ولما لم أصبر، توغلت كثيراً في الأحراش البرية وقد صممت بالعثور على ليدر وكنت أخشى أن يكون قد جرى له مكروه. لم أتنبه لحالي ولم اخف من أن اصاب بإطلاقات نارية من صائدين آخرين، جل رغبتي التقصي عما جرى لـ ليدر... عندما أمضيت أكثر من نصف ساعة داخل الأحراش، سمعت ما بدا لي زمجرة ونباحاً مكتوماً. من نقطة تواجدي سكنت وراقبت كل الجهات المفتوحة أمامي لرؤية منْ أينَ تصدر هذه الأصوات... هناك وحسب لمحت ليدر... كان قد شعر بتواجدي ولكنه لم يغير من وقفته وتأهبه، حال لم أره عليه سابقاً. حاولت أن اناديه إلا أنه كان ينظر لي بامعان دون أن يبدي أي رد فعل. زحفت قليلاً وتقربت أكثر حيث يمكنني رؤية ما يحدث بشكل واضح، فتصرفات ليدر لم تكن تحل لي اللغز... بلحظة واحدة لا غير، متأبطاً بندقيتي، رفعت رأسي قليلاً ونهضت كلياً... في تلك اللحظة وحسب رأيته هناك... رأيت ذلك الخنزير البشع... رأيت الخنزير البري بحجم عجل ينط من مخبئه ومتوجهاً نحوي ولأنني لم أره بعد ولم اتخيل تواجده وسرعة خروجه باتجاهي، فلم اكن مستعداً على التسديد بالبندقية ولا القيام بشيء آخر. أنتظرت ما يحدث وكأنني أرتجي نهاية أخرى ليس لها علاقة بي... آنذاك تنبهت إلى انني كنت على مرمى نطحة خنزير، موت مؤكد بانياب ذلك الخنزير البري... المفاجأة كانت هناك.. ليدر كان هناك أيضاً... كان هناك يترصده، فما أن نط الخنزير راكضاً باتجاهي حتى وجدته يقفز أعلى منه ليسقطه أرضاً، قاضماً رقبته السمينة بعضة عميقة قصمتها قصماً إلى درجة انني ما أن تنبهت لحالي وجثة الخنزير ملقاة على بعد خطوات مني يعتليها ليدر، لم احتج للبندقية ولا للسكين لقطع رأس الخنزير، ذلك أن رقبته تراخت وانقصمت بفعل قظمة أسنان ليدر الحادة كمنشار...

عندما عدنا ظافرين إلى حيث ينتظرنا الجميع قرب سياراتهم، كنت امضي متبختراً، أطير من فرحي، فقد سددتُ أفواه الجميع بقدرات ليدر الخارقة على الصيد... كما أنني أدركت بأن حياتي مدينة لخفة ليدر وبراعته بالقنص".

أمضى المعلم الأسابيع والاشهر التالية يسرد ويصقل الحكاية مرة بعد أخرى وهو يعيد قصها على الجميع. كان في كل مرة يضيف أشياء ويحذف غيرها دون أن يغير بمحتوى الحكاية الكثير، بل يزيدها شداً وألقاً. رأيته مرات عديدة يناجي أبي في الحديقة ويسره إلى أنني مع مرور الأيام أبدو شبيهاً به إلى درجة لا تصدق.

كنت مسروراً لسماع الجميع يهيب بمهارتي وقدرتي على القنص. لكنني مع ذلك كنت حزيناً وأنا أرى قدرتي تلك لا تنفع سوى بالصيد، إذ لم أرها ذات فائدة بالدفاع عن مزرعة المعلم مثلاً ولا الوقوف بوجه أولئك الاشرار الذين يعملون لدى "ذلك المسمى قائداً أيضاً". مع ذلك كنت المح بارقة امل وبصيص ضوء مستمعاً لتعليقات المعلم عن أخبار تصله سراً مرة وعلانية مرة أخرى تشير إلى تغيير قريب في أوضاع البلاد. سمعته مرة يتحدث لآخر زاره في مكتبه وهو يخبره بأنه يتأمل هذا اليوم بكل شوق لكنه وهو يدرك أنها الفرصة الوحيدة للتغيير "فأنا اخشى أن تجر البلاد لحروب لا نهاية لها".

لم أعرف وقتها ماذا عنى بالتغيير، وما كان يشير له من "خشيته على البلاد"، مع ذلك كنت منتشياً وأنا أسمع بأن الخلاص قادم، وان أيام ذلك الذي يسمى قائداً أيضاً على وشك الانتهاء.



لقاؤنا بالرجل المهم وما جرى لي مع كلبه المسمى "جبار"

بعد أن مضى وقت طويل على حادثة صيدي للخنزير البري، كنا معلمي وأنا محط إعجاب الجميع، وما يمر أسبوع حتى ندعى إلى رحلة صيد في مزرعة جديدة. كان الجميع قد قرر بسره أن يستمتع بإطلاق الأرانب وإخراج الخنازير من جحورها أملاً بمشهد يكرر قدراتي الصيدية. على الرغم من أن المعلم كان مسروراً بأن يهتم الجميع بي ويشيدون بإمكانياتي، إلا أنه لم يجبرني مرة على الخروج، بل أنه كان في مرات أخرى أكون فيها مستعداً وقادراً على الصيد لساعات طوال، أسمعه يعتذر من الآخرين ويفضل البقاء في البيت مشيراً إلى أن "ليدر" ليس دابة ويحتاج إلى استرجاع قواه! خفية كان يخبرني: "لا أريد أن تكون فرجة كمهرج بالنسبة لهم، لهذا أرفض دعواتهم، بالنسبة لي وعليهم أن يفهموا ذلك، أنك رفيقي وليس كلب صيد وحسب".

مع ذلك ونظراً للإلحاح الكبير كنا مضطرين للمشاركة في رحلات صيد بين حين وآخر.

الرحلة الأخيرة التي قضيناها ما زلت أذكر تفاصيلها حرفياً ولا أستطيع بكل قواي تناسيها. حاولت مرات عديدة أن أغطي عليها أو أن لا أعود لذكرها ماحياً تفاصيلها من رأسي دون جدى، دائماً ما تعود وبكل سطوع لتعلن عن نفسها. ولأنها رحلة حاسمة بتقرير مصيري ومصير المعلم وداره، فحتى الآن ما أن تدور في رأسي حتى ينتابني الهلع ممتزجاً بالغضب والكره الدفين الذي أحمله في داخلي

لذلك الذي رأيته أمامي في تلك الرحلة المقدرة علينا.

كنا قد خرجنا باكراً قبل بزوغ الفجر باتجاه غرب بغداد. يوم قبل ذلك اتصل أحدهم بالمعلم يخبره بان أحد رجال الدولة المهمين قد سمع بقدراتي وهو يدعونا للإلتحاق بهم اليوم التالي. حاول المعلم الاعتذار، فقد كان ممتنعاً أن يشارك بأية فعالية لها علاقة بذلك المسمى "قائد" أيضاً أو أي من ناسه ورجاله. لكن صوت الرجل الآخر عبر الهاتف كان قاطعاً آمراً، مضيفاً أنه من الأفضل الحضور وبلا تأخير وإلا فالأمر سيتحول إلى تحدي وعداء علني لا داعي له في حالة المعلم وظروفه الأخيرة. وافق المعلم على مضض، وهكذا كنا في مزرعة ذلك الرجل المهم برفقة آخرين جاؤوا من أنحاء مختلفة من البلاد. كان ذلك الموسم موسم صيد طيور السمان والقبج، وكان الرجل المهم قد هجر الصيد في مزرعته لوقت كافي كي تتكاثر الطيور وتملأ المزرعة استعداداً لهذا اليوم الكبير. المفاجأة الأخرى أن المزرعة ملأى بالغزلان كذلك، وقد جاء أمر الرجل المهم بأن يسمح بصيدها كهدية لضيوفه، وكل منْ يصطاد عدداً أكبر منها سيكون الفائز ذلك اليوم.

قبل أن ننطلق بتعقب الطيور الشاردة، اقترب الرجل المهم ليحيي الجميع. عندما وصل ناحيتنا سلم بحرارة وأطرى على قدراتي وشكر المعلم لموافقته على الحضور.

- أنا متشوق لرؤية كلبك، لقد حدثوني عنه كثيراً - قال الرجل المهم - ما اسمه؟

- ليدر. أجاب المعلم.

- هاه... توقف للحظات قبل أن يعاود الكلام - اسم أجنبي، يا للروعة، هل صحيح أنه الوحيد من صنفه؟

- إنه كلب صيد جيد... ولم يزد المعلم على ذلك.

- تعجبني هذه النوعية من الكلاب، دائماً ما فكرت باقتناء واحد منها.

لم ينطق المعلم بأية كلمة.

- هل تعتقد أنني سأكون محظوظاً باقتناء كلب مثل كلبك؟ سأل الرجل المهم مباشرة.

- لا، لا أعتقد.

خرجت جملة المعلم حاسمة جافة ورأيت الآخرين ينظرون مرعوبين بوجه المعلم منتظرين رد فعل الرجل المهم. ولكن قبل أن يند عنه شيئاً يذكر، أضاف المعلم قائلاً:

- لديك كلب صيد رائع أنت كذلك.

كان كلب الرجل المهم بجواره، كلباً ضخماً عرفته منذ النظرة الأولى، كان كلب صيد ألماني بامتياز، له رأس ضخمة لا تتناسب ونحافة رقبته وأسنانه الحادة البارزة وإذنيه المنتصبتين.

ضحك الرجل المهم وهو يعقب:

- آه كلبي، اسمه جبار.. كلب مدهش.. ولكنني لا أعتقد أنه يضاهي كلبك بقدراته!

- لا أعتقد. قال المعلم ولم يزد بالكلام.

عرفت من همسات الآخرين أن المعلم قد تجاوز حده بالتعقيب، وكان عليه أما أن يصمت أو أن يقبل بإهدائي للرجل المهم ما أن عرض رغبته بي وإعجابه بقدراتي. كان المعلم صارماً ولم يبد عليه أنه مستعد للحديث بهذا الشأن.

قرر الرجل المهم أن يبتدئ الصيد أولاً بتعقب الطيور، وعندما ننتهي من المرحلة الأولى تليها مسابقة صيد الغزلان المعدة لذلك اليوم.

لم نحتج لوقت طويل، فكانت رحلتنا أنا والمعلم قد انتهت

بظرف ساعة وقد أصطدنا العشرات من طيور السمان والقبج. لقد حزنا لوحدنا على رقم يضاهي خمسة أشخاص منهم.

بعد استراحة لساعة أمضاها الجميع بشرب الشاي والإفطار السريع، استعدَ الجميع للصيد الأكبر، السباق الحقيقي الحاسم بيننا. في ظرف دقائق رأينا من بعيد وقد أطلقوا الغزلان لترعى وتتسابق في أطراف المزرعة الشاسعة. عندما نفخوا بصافرة البدء، لم أتحرك فوراً مع الكلاب الراكضة التي راحت تنهب الأرض بكل قوتها. جلس المعلم إلى جانبي وراح يمسد على رأسي حتى سمعته يقول: "الآن جاء دورك يا ليدرا!". فما أن سمعته ينطق آخر حرف حتى جريت أسابق الريح والكلاب التي غدت قبلي، شعرت بالريح تحملني حملاً خلف الغزلان المسكينة التي شعرت باهتزازات أقدامنا الجارية تعقباً لخطواتها الرشيقة.

لم أهتم بوفرة الغزلان وما يمكنني قتله منها، فقد قررت أن اعود بأكبرها وأجدرها بالصيد. كنت قد لمحته من بعيد، فتركت الكلاب الأخرى تمضي بوجهة ورحت حتى الطرف الآخر من المزرعة خلف ذكر غزلان ضخم، لو رأيته في مكان آخر لظننت به دابة خرافية لا مثيل لها على الأرض. وعلٌ بقرنين متفرعين كشجرة وحافرين يدكان الأرض دكاً وهو يركض هارباً متحسباً من النباح والأسنان الباشطة الجاهزة لقضم لحمه.

جريت خلفه من حرش لآخر، لم أكن مستعداً لنهش لحمه قبل أن يعلن استعداده لذلك. كانت تلك سنتي بالصيد، لا أخدع ولا أماطل، بل أواجه وجهاً لوجه. كان الوعل متيناً ونشطاً ولم يكل من الجري في كل الجهات، وكنت خلفه لا نية لي غير الإيقاع به متجاهلاً الغزلان الطافرة هنا وهنا والتي تتقاطع في طريقنا بين حين وآخر.

لمحت أن الكلاب الأخرى قد قررت أنها غير جديرة بتعقب ذلك الغزال وتركتني لوحدي في محاولتي. الوحيد الذي كان جاداً بتعقبه مثلي كان ذلك الكلب المسمى "جبار". كنت قد صممت أن لا أدعه ينال من طريدتي حتى لو توجب ذلك أن أجابه كلب الرجل المهم نفسه. في لحظات المطاردة الشرسة تلك وقد كنت متنهباً للغزال لا غير، شعرت بنفسي لوحدي خلفه، كان جبار قد حاد لبعض الوقت باتجاه غزالة شاردة لوحدها، من ناحيتي لم أهدأ فزدت سرعتي خلفه إذ لم أكن مستعداً لفقد أثر الغزال الشجاع... "وعلّي" الذي لا بد وأن يخر ساقطاً تحت أقدامي!

عندما شعرت بتراخي قوى الغزال، جربت القفز ونهش ساقه القريبة من رأسي، نهشتها نهشة قوية شعرت فيها بدمائه تسيل وتغسلني غسلاً، تراخيت قليلاً وتركته يجري دون أن يغيب عن أنظاري. متابعاً خطواته، أحسست أنه قد بدأ يلين وآثار أنيابي قد بدأ بتخدير قواه، حينذاك مضيت حتى الخطوة الثانية فكان أن ركضت بسرعة مقترباً من بطنه السمينة، لأنط رافعاً قدمي الأماميتين ودافعاً بالخلفيتين لأجدني متشبثاً برقبته ناشباً فيها أسناني الباشطة وجارحاً بعمق شرايينه النافرة. ممدداً في الهواء بلا سند ومسحولاً بقوة الوعل وقفزاته مرفرفاً وكأنني حبل شد على رقبته، للحظات قليلة ولكن حاسمة، لأتركه من جديد يجري طليقاً، رامياً بجسدي على الأرض حتى أستعيد توازني لأعاود ملاحقتي خلفه. كان الغزال مجروحاً في الصميم، نافورتا دم تسيلان من خلفه ومن رقبته. لم أحد بنظري عن عينيه وهو يديرهما ليرى إن كنت ما أزال اتبعه أو أنني قد فقدت الأمل بصيده.

كنت متوثباً ومستعداً أكثر من قبل للمضي حتى نهاية الشوط. ركض الغزال بكل ما لديه من قوة، وكنت خلفه كمن أسوقه إلى

حتفه. في تلك اللحظة المباغتة، لمحته يتسلل حتى أحراش شجيرات وأغصـان يابسـة متكومـة بهيئـة تل وداخلها أشـبه ما يكـون بمخبأ قد غطته جذور ضخمة وأشـجار متكسـرة وأغصان شـوكية حادة. اندس فـي عمقهـا دون أن يأبـه بجـراح جديدة تسـببها له غرزات الأشـواك والأغصـان الحـادة. بركـت عنـد مخبـأه وقد هدني التعـب لاهثاً ماداً لسـاني لأقصـى حـد، يكاد يغشـى علي من الإجهاد. لـم أتحرك وقد كنـت أنتظـر أن يسـر لي بالإشـارة الأخيرة للقضاء عليـه. كان المخبأ معداً إعداداً متيناً ولا بد أنه كان في يوم ما قد بُني من قبل صيادين للاختبـاء انتظـاراً لطريـدة أو للإيقـاع بطريدة كبيـرة. درت حول التل الشـوكي بحثـاً عـن مدخل مناسـب ولما لم أجـد فجوة ممكنة عدت لأرقـد بأقـرب نقطـة متمعناً بالغزال الجريح وجهاً لوجه وكأن ما بيننا ليس سوى نافذة زجاجية شفافة.

هدأت قليلاً وأقعيت بأقرب بقعة منه لأشـهد نزيفه وانطفاء نور عينيه حتى أنقض عليه دفعة واحدة.

كنـا ننظـر لبعضنـا وكأننـا يعرف أحدنا الآخر من سـنين، صحبة طريـق وتجربـة واحـدة. راقبتـه ولـم أره يرمـش بعينيـه، كان مذعوراً بالطبـع ومشـلول الحركـة، كل همـه أن يسـد جـرح رقبتـه النـازف بالأعشاب المتناثرة في المخبأ. لم يكن قادراً على تحمل آلامه لكنه كان متأهبـاً لا يغمـض لـه جفـن وقد شـعر بأن أي تغافـل معناه موته الوشـيك. كان في تطاوله على البقاء واعياً وبإشـارة خفية تصلني منه صافية لا غبار عليها، يلمح لي بأن كل لحظة يكسبها مني ما هي إلا دليل على جدارته بالبقاء حياً. بقينا هناك لنصف سـاعة أو أكثر ننظر لبعضنـا ونتناجى بدون كلمات. أحسسـت بـه طريدة جديرة بالتقدير، لم يكن جباناً بالمرة، كان يتحداني ويصر على تنبيهي بأن التمكن منه يتطلب صبراً وقدرة كبيرة على التحمل.

كنت في كل مرة أميل إلى تركه، أتحايل بالعثور على مبررات مقنعة لترك هذا الغزال الشجاع.

ما كنت أفكر به وحسب هو ما يمكن أن يقوله الآخرون لو عدت بلاه وبلا أية طريدة أخرى. لا بد أن المعلم سيدرك محنتي ويتفهم لسبب ما، سيدرك كل ذلك في وقدة عيني وأنا اخبره بأنني قد تنازلت عن طريدتي، تسامحت مع الغزال الشجاع هذا ومنحته فرصة أخرى كي يجرب لذة الحياة في براري شاسعة لا صائدين فيها. ما أن فكرت بذلك حتى هدأت (ما يهمني المعلم فقط، فما بالي بما يقوله الآخرون!)، حينذاك عدلت من تكشيرة وجهي ودسست أنيابي في فمها ورمشت بعيني اللتان لم تنغلقا منذ لحظات المطاردة الأولى. ما أن فتحتهما بود حتى راقبت الغزال وقد علت محياه علامة ارتياح تام وتابعت ببطء انغلاق عينيه وكأنه بها قد أراد شكري.. فهمنا إشارات بعضنا دون أن نتغاضى عن تذكر الأثر الماضي، لكننا بإغماضة العيون المتتالية كنا قد تخلصنا من الضغينة وسامحنا نفسينا. غفرت له لشجاعته بمنازلتي وغفر لي بنظرة ودية جرحي له.

أدرت له ظهري وعديت برأس معتدلة وبخطى خفيفة باتجاه المعلم والآخرين. قبل أن أغادر وكر الغزال وما زلت على بعد خطوات منه، سمعت ما يشبه حشرجة أخيرة ورغاء قاتل. ما أن التفت حيث تركت الغزال حتى تفاجأت بكلب الرجل المهم المدعو "جبار"، ولم اعرف كيف وصل للمخبأ وكم له من الوقت وهو يتربص بنا. كان قد حطم بقفزة واحدة وكر الأغصان الشوكية ووجد لنفسه منفذاً ليصعد على ظهر الغزال ناشباً فكيه في رقبة الغزال الجريح. لمحت الغزال وهو يلفظ أنفاسه ويسقط على كتلة الأغصان المتشابكة وقد نزف ما تبقى من دمه. لم أفكر بأي شيء، كانت ذاكرتي بيضاء تتشكل تلك اللحظة فقط. هرولت مطاوعاً أقدامي، عدوت بكل سرعتي قافزاً

أعلى ما أستطيع لأحط فوق الاثنين غارزاً أنيابي ومخالبي برقبة وظهر الكلب جبار. كان ما يزال مركزاً كل جهده على أن لا يفر منه الغزال المحتضر وأنا بدوري أضغط على رقبته التي بدأت تنزف بغزارة وشعرت به ينط ويقفز متأرجحاً في الهواء. طرنا كلانا. كنت أتمرغ على الأحراش والأغصان الشوكية دون أن أبالي بما يحصل لي. لم أسمح لـ جبار أن ينفك ويهرب من قبضتي. كنت أطبق عليه بشدة ما أن راح يحاول الفكاك مني، يعدو وأنا متشبث به، يقفز وانا أمتطي ظهره حتى بدأ يعالج متبرغثاً على الأرض يجر أنفاسه جراً دون أن يستطيع النيل مني ولو بخرمشة مخلب أو عضة عابرة.

سقط ميتاً تحتي، ملطخاً بدمه ودماء الغزال دون أن يتخلص كلياً من الأغصان الشوكية المغروزة في كل انحاء جسده. كانت انيابي قد أحدثت قطعاً كبيراً في جسده، وهو ما جعله ينفق. همدت قربه بلا حيل ولا قوة، متعرقاً، ثقيلاً وبلا أية ذاكرة تفيدني بتفسير كل ما مر بي منذ لحظة ملاحقة الغزال حتى مجابهتي للكلب جبار. كنت في الوسط تماماً لا أنوي على شيء متأملاً ضحيتي وفي الجانب الآخر الغزال القتيل الذي رحمته ولم يرحمه الكلب جبار... إذا كانت عدالة السماء هي التي اقتصت من جبار عن طريقي، فم هو المسؤول عن الظلم الذي لحق بالغزال القتيل؟! لا أستطيع التفكير في زخم هذه الفوضى التي تكبلني تكبيلاً.

عدتُ إلى المخيم - حيث ينتظر الجميع - بعد ساعتين تقريباً. ما أن لمحني المعلم بهيئتي المزرية وقد صبغتني الدماء بصبغتها القانية وجسدي بائن للعيان ولم يكن قد سلم شبر واحد منه من جراح الأشواك والأغصان، حتى خمن ما كنت قد دخلت فيه. عرف مباشرة من جراحي أن شيئاً خطيراً قد وقع، وانني قد خرجت ظافراً من معركة شرسة. اندهش الجميع لمنظري ولكوني قد عدت بلا أية

طريدة. أكثرهم تطيراً كان الرجل المهم ومرافقيه، إذ دون أن ينتظروا أكثر غادرونا بعجلاتهم، دخولاً في الأحراش ليعودوا بعد زمن وقد حملوا جثة جبار برفقة الجسد المقطع لذلك الغزال الشجاع. ما أن أنزلوا جبار من العجلة حتى لمحت ما ألحقته به، كان عبارة عن رقبة مهروسة تماماً.

عندما عدنا للبيت كانت ما تزال ترن في أذني جملة كررها مرافقو الرجل المهم: "هذا اعتداء سافر لن يذهب سدى!؟".. كنا قد بقينا مع نظرات التحدي والغضب التي ارتسمت على وجه الرجل المهم وهو يغادر المزرعة دون أن يودع أحداً وقد مضى حاملاً ما تبقى من كلبه العزيز. لم نعد نتذكر من وعيده وغضبه سوى إصبعه المرفوع بوجه المعلم. لا أتذكر بدوري غير المعلم وهو يحتضنني بقوة ويدافع عني بوجه الأصابع المرفوعة لأكثر من واحد من أتباع الرجل المهم.

في البيت، أجلسني المعلم على المنضدة وأخرج الشاش والأدوية وراح ينظفني من الأشواك دون استعجال، لا يترك جزءاً من جسدي دون أن يكون موقناً أنه نظيف وبلا أي أثر لشوكة مغروزة أو جرح غائر. مسح كل جسدي بالمراهم ثم غطاني بأغطية سميكة وتركني أستريح في الصالة. بقي طوال الليل يمسح على جسدي وفي عينيه رغبة أن يخبرني بأنني قد أحسنت الصنع وأنه قد فهم كل ما قمت به وموافق عليه من الألف حتى الياء. دون أن ينسى الاعتناء بي والسهر على راحتي، اضطجع بقربي وقد جاء بكتاب ليقرأ لي ما سمعته عنه مراراً وما أطلبه منه في كل الأوقات، قرأ على مسامعي حكايات "رينكوته وكورتاديو" في رواية "حوار كلبين" التي لا أمل من الاستمتاع بتفاصيلها حتى شعرت بالراحة والدفء يطوقاني، وبدأت أغمض عيني وأغفو ملء جفني.

كيف غادرنا أبي السلوقي مقتفياً آثار أمي السابويسو وأحداث أخرى غيرت مجرى حياتي

رقدت أياماً طويلة متأملاً الشفاء التام من جراح جسدي وروحي.

كنت قد شهدت معارك عديدة واصطدت بعمري هذا مئات الطيور والأرانب وعشرات الخنازير، لكنني لم أخرج مطعوناً في أعماقي مثلما كنت عليه بعد معركتي مع الكلب "جبار". إذا كانت المعركة الأولى لاصطياد الوعل الخرافي قد خمدت في داخلي بان تركته دون عقاب نهائي، فالتصدي للكلب جبار الأرعن لم يكن سوى الفأس التي قطعت وتيرة علاقتي بالدم والضحايا.

مرت عليّ أيام ممدداً بلا حراك ولا قدرة لي على القيام والوقوف، كانت رغبتي تتضاءل بالشفاء فأروح لأسقط في قعر الهاوية من جديد. كنت قد توصلت مع نفسي بأنني أمقت اللحم ولون الدم والقتل منذ اللحظة الأولى لتعلمي الصيد، لكنني لم أكتشفها حتى مساء معركتي الحاسمة مع الكلب "جبار". حاول المعلم بكل قدراته وحديثه معي أن يجبرني على التغذية لأستعيد قواي وصحتي، إلا أنني كنت قد صممت مع نفسي بأن لا أقرب اللحم نهائياً. أصبحت منذ ذلك اليوم نباتياً وهذا ما حط من قوتي وجعلني لا أستعيد نفسي ولا قابليتي على الجري والعودة إلى طبيعتي السابقة بسهولة.

لا بد أن المعلم قد أدرك قراري لأنه ما أن يقدم لي أطباقاً من اللحوم المتنوعة حتى يجدني قد عفتها كلياً ولم أقربها بالمرة. في البداية كان يبدلها لي بأنواع أخرى ظناً منه أنني لست بقادر بعد على مضغها وهظمها بسبب جراحي الطرية، غير أنه يعود في كل مرة

ليجدني أتقرب من الفواكه والخضار والأسماك والأعشاب الأخرى وأقتات منها ما يلزمني تاركاً الوجبات اللحمية الدسمة في أطباقها.

أعرف أن منْ يقرأ كلامي هذا سيشك باستحالة تعودي الجديد وصعوبته، إذ حتى أنا نفسي لم أصدق أن يوماً ما سيجيء علي دون أن أتذوق لحم الطيور ولا عظام الأغنام. كنت مصمماً على خطوتي القادمة وقراري حاسماً بالمرة. لم يفهم المعلم ولا أبي قراري هذا، ولكنني وجدتهما لا يرغماني على تغييره، بل أن المعلم قد تنحى بي جانباً وقال لي: "أنا ادرك رغبتك وأفهمها، ليتنا جميعنا بهذا الاستعداد!".

مرت الأيام وكنت قد فقدت من وزني الكثير. أصبحت أكثر نحافة بعينين ملتمعتين وساقين نحيفتين، ما لم أتخل عنه تماماً هي قدرتي العجيبة على الجري والتصدي لأي خطر.

في مرات قادمة كانت المغريات تشدني للدم واللحم إلا أنني كنت أُصبر نفسي واقودها بوعي حتى لا أنتكس وأحيد عن رغبتي الصادقة: أصبحت نباتياً بملء إرادتي، متذوقاً الأسماك بين حين وآخر.

كان قبول المعلم بقراري تاماً، حتى إنه لم يعد لذكر الصيد أمامي ولم يطلب مني ما يكسر القاعدة التي قررت المضي فيها وتطويع حياتي عليها.

كان لي مع المعلم جولات وحكايات أخرى غير الصيد. بدلاً عنها أكثرنا من التجوال في بغداد ومدن أخرى. النزول حتى أقرب نقطة من دجلة وأحراشها. لقاءات من نوع آخر، قراءات مطولة وأحاديث متشعبة ملأت حياتنا دون داع لذكر مطاردة ولا صيد ولا دماء جديدة تهرق.

ما حدث فيما بعد كان له الوقع الأكبر لقراري القاطع بكره

الدم.

لم نهنأ بأوقات سعيدة قادمة بعد الذي جرى لنا في رحلة الصيد الأخيرة. كان المعلم خلال فترة نقاهتي يقوم شخصياً بحراسة البيت برفقة أبي المجهد وأمي التي لم يكن لها باع طويل بأعمال كهذه، كل ذلك ليتركني أسترجع قواي. في الأيام الأيام بدأت تصل البيت إشارات غامضة، رسائل تهديد، دوريات شرطة تبقى لساعات طويلة مراقبة دارنا، ازعاجات ليلية، نداءات مجهولة، آخرها كانت القشة التي قصمت ظهر خوفنا المتزايد، عندما نهضنا صباحاً - كان صباحي الرائق الأول بعد أحداث الكلب جبار - فوجدنا حديقة الدار ملأى بطيور سمان مقطوعة الرؤوس.

ليلة امتلاء الحديقة برؤوس السمان المقطوعة، كانت حاسمة. كنت والمعلم برفقة أبي متأهبين لأي طارئ. شاهدنا أن الدوريات مقابل الدار قد بدأت تنسحب تدريجياً، وتابعنا عن بعد عند أطراف مزرعة المعلم المصادرة قد ارتفع أكثر من خيط دخان كثيف. بعد لحظات تصاعدت النيران ولمحنا حركة أشباح تدخل وتخرج وصوت إطلاقات غريب لم يحدث سابقاً ولم نشهد له مثيل. دخل المعلم البيت وخرج مهرولاً ببندقية الصيد وناداني أن أرافقه حتى حدود المزرعة المحترقة، وطلب من أبي البقاء لحراسة البيت برفقة أمي.

نزلنا المنحدر حتى البوابة القريبة من المزرعة المصادرة. طلب مني المعلم أن ألازمه كظله وبدأنا ندخل تدريجياً في الأحراش المتشابكة والتي بدأت تغزل أغصانها الواحدة بالأخرى بعد أن تركت لأشهر بدون عناية. كنا نتنصت للأقدام الرائحة الغادية، وكلما هممت بمتابعة أحدهم، كان المعلم يأمرني بالبقاء بقربه دون حراك. للحظات لا غير حتى وجدنا أنفسنا منتصف المزرعة تماماً، وللحظات أخرى شعرنا بالنيران تحيطنا من كل جانب. كلما قررنا مداهمة طرف

وإطفائه كي نخرج من دائرته، كنا نتلاقى بصلية إطلاقات سريعة لا تترك لنا متنفساً للهروب أو الحركة فننقاد سوية ونسقط أرضاً ممددين على التربة الطينية انتظاراً لإشارة قادمة.

كان الرصاصات تتوالى، بعضها يمر بأقرب نقطة من رؤوسنا، وبعضها الآخر يطيش عالياً. المرة الأولى منذ ولادتي التي كنت أشعر فيها بنفسي مقيداً لا أستطيع التحرك ملطخاً بالأطيان من أنفي حتى قدمي وكأنني في معركة شرسة. سلاحي الوحيد - أو هذا مافهمته من إشارات المعلم - لا تنفع هنا إزاء أسلحة قوية تثقب جسدك بظرف ثانية. ما أن هدأ الوضع وما زلنا محاطين بالنيران ودخان كثيف قد بدأ يغشى أعيننا ويخنقنا، سمعت المعلم صارخاً بي: "هيا يا ليدر". انقدت لنداءاته وركضت بجواره بكل سرعة ممكنة مقتحمين النيران التي لسعتنا في أكثر من بقعة في جسدينا ورحنا نركض فاتحين لجسدينا طريقاً لم يخطر على البال، ولكن الحاجة أم الابتكار كما سمعت مراراً. جرينا طويلاً من حقل لآخر نبحث عن فتحة خلاص دون أن نفتقد ولو للحظات رجال البنادق وهم يصوبون علينا بوابل من الرصاص. لم نعد نأبه بأي شيء، كان غرضنا هو البحث عن أمل للنجاة بجلدينا. بعد جري لدقائق بدت لي وكأنها ساعات لا تنقضي، سمعت المعلم يصرخ بي "والآن إلى الحفرة!". طفرنا بقفزة واحدة لنرقد في حفرة مليئة بالمياه الآسنة والأطيان...وصمتنا. محميان بالأطيان وحفرة عميقة لم نعد نرى أي أحد ولا أي أحد يعثر علينا بسهولة. كنا في حفرتنا متوثبين لأي نداء خارجي. طوال ساعات كانت تتردد إلى أسماعنا تساؤلات الصيادين وصراخهم وهم يناشدون أحدهم الآخر. كل تلك النداءات كانت تدور حولنا، ولأنهم لم يعثروا لنا على أثر، سمعنا أحدهم وهو على ما يبدو رئيسهم أو ما شابه ذلك يقول:

"لا يمكن أن يكونا قد هربا، لا بد أنهم قد احترقا أو غرقا تحت الأطيان.. لا يهم.. غداً صباحاً نعاود البحث.. لينسحب الجميع؟!".

ظننت أن المعلم سيأمرني بالانسحاب إلى البيت فوراً. لم يتحرك ولم أسمع منه أي نداء. بقي ممدداً وصامتاً وقد أرخى بيده على رأسي. بقينا طويلاً بهذا الوضع تحسباً لأن يكون فخاً لصيدنا. عندما شعرنا بأن الآخرين قد أنسحبوا فعلاً، نهضنا بخفة وزحفنا باتجاه منحدر النزول الذي يقودنا صعوداً لتلته العالية حتى الدار. كان المعلم يأمرني بالاحتراس حتى ونحن نقترب من حديقة الدار. كان كل شيء قابعاً في الصمت. لم أهتد بأنفي المغطى بالأطيان لرائحة أبوي، أو ما يشير لقربهما في الحديقة أو البيت. ما زلنا منحنيين، نزحف باتجاه بوابة البيت الداخلية وقبل أن نفكر ماذا يتوجب علينا أن نفعل، وجدت أبي بصورة لم ألمحها منذ فترة طويلة. كان متوثباً، شاهراً أنيابه ومستعداً لنهشنا وتمزيقنا. وقفت أمامه شاهراً أنيابي أنا الآخر، ليس تهديداً له بقدر ما كان حركة تطمين ليتعرف علي وعلى المعلم.

خفض أبي من نباحه وهدأ أخيراً بعد أن شعر بالاطمئنان لتعرفه علينا. لكنه لم ينتظر قربنا بل انسحب فجأة ومضى حتى خص أمي يسحل قدمه سحلاً متحملاً على ألم جراحه التي بانت لنا الآن أكثر من قبل. كانت قدمه مشروطة شرطاً تنز دمها وبطنه ممزقة وقد برزت أحشائها دون أن تندلق. لم أصبر للحظة فمضيت خلفه وتبعنا المعلم. ما أن دخل أبي الخُص حتى وجدناه مقلوباً رأساً على عقب وفي زاوية منه ترقد جثة أمي، مطروحة هناك مضرجة بدمها النازف. تقدمت بسرعة وأنحنيت متأملاً السابويسو أمي راقدة بلا حراك وقد غادرتنا منذ وقت في طريقها حتى العالم الآخر. لم أتحمل ورحت أفرغ أحشائي مرارة وألماً. جلست جوارها متأملاً عينيها الحزينتين

مفتوحتيـن علـى منظـر لا يعـرف به غيرها، منظـر ولا بد أن له علاقة بحقـول طفولتهـا بالقـرب مـن مـزارع نهر الوادي الكبيـر، في جنوب إسـبانيا التـي تركـت منـذ زمن بعيـد والذي ما زال يسـكن عقلها كل أوقات عيشها في بغداد. مضيت حتى الطرف الآخر وسحبت غطاءاً زهرياً وغطيت به بطنها المشقوقة من الرقبة حتى الساقين وكأن سكين قصاب قاسي قد شقها بلا رحمة ولا دارية. أبي لم يكن بحال أحسن لكنـه كان يتحسـب عودتنـا لـذا صّبرَ نفسـه طويلاً حتـى رآنا. لم نعد نعرف ماذا نعمل؟ الوحيد الذي قرر ما عليه أن يفعله، كان أبي نفسه. رقـد جـوار أمـي. أزاح الغطاء قليلاً وضغط جسـده النازف بجسـدها فالتحمت أحشائهما المندلقة وراح في غفوة جدية.

كنـت حزينـاً بشـكل لا يوصـف، لـم تكـن لي قـدرة حتى على النبـاح، فاحتضننـي المعلـم وبقينـا نتأمل منظر السـلوقي أبي محتضناً السابويسو أمي، نستمع له وهو يناجيها بلا نباح، بينما راحت نظراته تنطفئ شـيئاً فشـيئاً حتى خبا نفسـه وراح يتحسس دربه باحثاً عن آثار أمي التي سبقته حتى عالم لا يُحزرْ.

رقدت قرب جثتي أبي وأمي ولم أشعر بشيء بعد ذلك.

قبل أن تشرق الشمس بساعة، شعرت بحركة المعلم وقد نهض يتحسـس المكان ويراقب الحقل البعيد الذي أنطفأت نيرانه ولم يبق غيـر الدخـان دليـلاً لكارثـة ليلـة أمـس. دون أي تزويـق ولا كلمات مؤثرة، لمحت تقطيبة وجهه وحزنه وهو يطلب مني أن أساعده بدفن السابويسـو والسـلوقي بأقصى سـرعة. حفر لهما المعلم حفرة واحدة وسـط الحديقـة وطرحهمـا فيهـا، ثم غطاها بشـتلة ورد صغيرة. وقفنا متأملين المنظر ولم نتحدث بكلمة واحدة. لم يكن حزن المعلم بأقل من حزني. كان كلانا مكنسراً ومحبطاً وقد فقدنا بليلة واحدة كل شيء عزيز لدينا، وأصبحنا يتيمين بلا عائل ولا ضمانة.

دخلنا البيت أخيراً ورأينا كل شيء قد قُلِب ونُهِب ما استطاعوا نهبه.

صعد المعلم حتى الطابق العلوي وعاد بحقيبة كبيرة حشر فيها بسرعة البعض من أغراضه وأشيائه الخاصة ومقداراً من المال، وحملها حتى السيارة التي كانت ما تزال في مكانها دون أن يمسوها.

لم ينس أن يودع دفاتر مذكراته في مخبأ سري، دفنها هناك بحضوري وأكد عليّ أن أتذكر مكانها فيما لو خانته ذاكرته لاسترجاعها ذات يوم.

قال لي المعلم ونحن نصعد السيارة باتجاه لا علم لي به بعد: "لم يعد لنا مكان هنا!". وقاد السيارة في طريق آخر.

ملتفتاً بأكثر من اتجاه ومودعاً كل ذكرياتي وناسي في دار المعلم. كنت قد قررت بسري أن اعود يوماً للدار ولا بد أن أنتقم لمقتل أبوي. لم أستطع في تلك اللحظة غير تذكر أمواج نهر دجلة والهدوء الذي كان ينعم به دار بيت المعلم الذي يقود سيارته بصمت وتركيز لم أخمن فيها أي رد فعل معين. سأحن كثيراً لدجلة القريبة وأمواجه وهوائه وهوامه، سأحن لكل شيء قريب من النهر، ولكل شيء في النهر.

الشمس لن تتأخر بإطلالتها ونحن نمضي باتجاهها وكأننا نخترق قشرةَ برتقالتها اللاهبة.



التشرد في بغداد وحادث وقوعنا في المصيدة

الأيام الثلاثة الأولى لهروبنا من الدار المطلة على نهر دجلة، دارنا العتيدة، دار المعلم وأهله منذ عشرات السنين، أمضيناها تقريباً في السيارة من مكان لآخر، لا نتركها إلا لضرورة طارئة أو حاجة ماسة. فهمت من المعلم أنه لم يعد يأمن أي مكان بعد الذي حصل لنا في داره وما صنعت أياديهم بنا، خراب الدار ومقتل والدي الذي يؤلمني تذكره وكأنه حدبة احملها ما تبقى لي من عمر. أخبرني المعلم أنه قد عرف عن طريق آخرين بأن هذه أفعال الرجل المهم ذاك، كان قد أرسل رجاله ليكملوا ما بدأه من تهديدات في رحلة الصيد المشؤومة تلك، رحلتنا الأخيرة وفراقنا الأبدي لعالم الصيد.

عملياً كنا ننحاز لركن مهجور عند زاوية مهجورة في شارع أو حي قليل الحركة. نغلق علينا أبواب السيارة وننام قبل أن توقظنا الشمس العالية وحركة البشر، لنغادر من جديد حتى أقرب مطعم لاحتساء شراب أو لطلب أكلة سريعة. كنت أظل في السيارة أغلب الأحيان، ينزل المعلم حتى المحل أو المطعم ويغيب لبعض الوقت ليعود حاملاً معه خبزاً وحليباً ولحماً وخضر وأشياء بسيطة أخرى. أحيان كثيرة كنا نخرج حتى أطراف بغداد وهناك ننزل عند مطعم في الطريق الخارجي نأكل حتى الشبع ثم نتسوق بما نحتاج قبل أن نطوف من جديد مشردين من شارع لآخر.

كان المعلم ينبهني على ما يجري حولنا. كنا نرى الجيش والشرطة في الشوارع أكثر مما كانوا عليه سابقاً. حضور دوريات

وعجلات عسكرية في زوايا وبنايات لم نلحظها إطلاقاً. في أوقات ونحن نمر من شارع لآخر لم نكن نعثر على وجوه مدنية، كانت الوجوه الناعسة والكالحة للجنود والشرطة وهم يسيطرون على البنايات وزوايا المحلات هي أكثر الوجوه حضوراً وأكثرها تخويفاً لنا. كان المعلم يخبرني وهو يشير للتغييرات قائلاً: "انظر يا ليدر، لا بد أن شيئاً خطيراً يجري في البلاد". ولم أكن أعرف كيف أجيب، الرعب من القادم المجهول يتملكني أنا أيضاً.

بعد أكثر من ثلاثة أيام حاول المعلم استئجار غرفة في فندق أو نزل بسيط ولكنه كان يجابه دائماً من قبل أصحابها بأن لا مكان لي في غرفهم. كان يمتنعون عن قبولي ضيفاً في إحدى الغرف، مما يجعل المعلم مصراً على البقاء معي في السيارة، لأنه كما أخبرني لن يسمح لنفسه بتركي وحيداً في سيارة محكمة الإغلاق. كان يفيض بالكلام وينهيه قائلاً: "لقد شهدنا سوية كل شيء، ولا بد أن ننهيه سوية، سنصبر يا صاحبي!". ثم يروح في موجة تفكير لا قرار لها، لا يقطع تفكيره سوى ما يراه من حركة غير اعتيادية في الشارع أو اقتراب دورية شرطة من المنطقة. كان يتوجس كثيراً من العيون المراقبة والتي تترصد كل شاردة وواردة في البلاد.

مرة وكنا قرب مطعم، نزل المعلم ليشتري وجبة طعام له ولي، ولكنه ما أن غاب لنصف ساعة حتى عاد وبرفقته رجل تعرفت عليه في مناسبة سابقة. كان من أصحاب المعلم، وقد زارنا مرارنا في الدار وبقي عندنا حتى ساعة متأخرة من الليل. صعد إلى جوار المعلم وانطلقنا حتى داره.

- لا أفهم لماذا لم تتصل بي حتى الآن. كنت قلقاً عليك. هل هذه أصول الصداقة؟ تساءل الرجل.

- أعتذر منك، حالتي لم تسمح لي بتفكير منطقي. خوفي على

الجميع منعني من الاتصال بكم. أجابه المعلم.

- لا عليك يا صاحبي، كله سينقضي، ألم تسمع بالأخبار، هذه المرة امهلوه أيام وحسب... ستبدأ المعركة الحقيقية.

- أتمنى ذلك، لقد هدنا التعب من الوعود.

- سترى... ستتنفس أخيراً!

قادنا الرجل حتى بيت في أطراف بغداد. فتح لنا الكراج وأدخلنا السيارة. هبطنا وأول شيء قاله الرجل بأن كل شيء مهيأ لنا ولن ينقصنا شيء هنا. طلب من المعلم أن نعتبر أنفسنا في بيتنا، لنستحم من ليال تشرد طويلة ونرتاح قليلاً بينما سيمضي هو إلى بيته الآخر ليجلب لنا ما نحتاجه في إقامتنا.

ظللنا نستمتع بمياه الحمام لوقت طويل. عندما خرجنا وارتحنا في الصالون سمعنا بوصول الصديق.

عاد وشخص آخر، على ما يبدو أنه هو الآخر صديق للمعلم، محملين بالملابس والأغذية ودلونا على كل منافذ البيت وغرفه، أخبرا المعلم أن لا داعي لخروجه إذا لم يكن راغباً بالخروج لأنهما سيقومان بكل ما يحتاجه، إضافة إلى أنه بين يوم وآخر سيرسل منْ يقوم بتنظيف البيت والطبخ لنا.

طوال تلك الأيام التي لم نخرج فيها وقضيناها بالقراءة ومتابعة الأخبار، لم نفتقد الرفقة أبداً.

كل يوم يأتي صاحب المعلم برفقة صديق آخر، كنت مسروراً وأنا أرى المعلم محاطاً بصحبه ولم يعد لتذكر أيامه التعيسة الماضية. كل ليلة نتابع خطابات "ذلك المسمى قائداً أيضاً"، ونترقب ردود أفعال الآخرين. مع كل يوم يمر كان المعلم يخبرني بأن الخلاص حقيقي هذه المرة. مع ذلك كان كل شيء مقصوراً على تدخل عسكري من طرف قوات أجنبية ستصل من جهة بعيدة. كان المعلم

في كل إشاراته متحسباً للخراب الذي قد يصيب البلاد لو يأخذوا بنظر الاعتبار طبيعة البلاد. أنا شخصياً لم أفهم ذلك، فقد كنت متوثباً لرؤية ما يجيء به الغد بعد أن خبرت ما ذقناه من خراب على يدي ذلك المسمى قائد أيضاً. كنا نمضي الليل حتى ساعة متأخرة انتظاراً لنداء ما، خبر، بصيص ضوء، إشارة ما تنهي قلقنا وترقبنا.

بعد أكثر من أسبوعين ونحن نحتمي في مخبأنا الجديد، أصابنا الحنين لدارنا المطلة على دجلة. وكان أن قرر المعلم تلك الليلة أن يقود سيارته حتى أقرب مكان لتفقد داره. كان المعلم محترساً بالطبع من مغبة الاقتراب كثيراً من الدار، لكنه - مثلي - كان راغباً بشدة الوصول حتى أقرب نقطة من الدار لتمعنها بصورة أكبر. وقفنا عند زاوية شارع تبعد بخمسمائة متر عن البيت. أطفأنا أنوار السيارة ورحنا نراقب ما يجري في الدار. أول ما لفت انتباهنا أن الطابق العلوي من البيت مضاء وحركة أشباح تتجول في داخله "لا بد أنهم قد احتلوه منذ صباح يوم مغادرتنا" علق المعلم بحسرة. عند البوابة الرئيسية لمحنا لافتة تشير لاسم جديد غير اسم عائلة المعلم التي كانت تتسيد النقوش المزينة للجدار الخارجي. لمحنا بأسى أنهم قد قطعوا كذلك كل الأشجار المحيطة بسور الدار الداخلية وتركوه مشرعاً للريح والهوام.

عدنا في ساعة متأخرة لبيت الصديق محملين بالفقد والأسى. كنا نعتقد أن كل شيء ممكن أن يتعدل بمرور الوقت، لكن ذلك لم يحدث أبداً، فما أن تنكأ الذكرى حتى يتجدد ألم الجرح العميق. كنت شديد الحزن لأنني على وجه الخصوص لم أعرف بيتاً آخر منذ ولادتي، عشت وتربيت وأمضيت جل شبابي وطفولتي فيه، ولم أعرف مكاناً آخر أعده بيتي الخاص، ولا نهر آخر لمحته طوال أيامي غير دجلة.

ما أن هبطنا من السيارة وقبل أن نمضي باتجاه بوابة البيت الرئيسية حتى شعرنا - ولا أعلم من أي جهة قدموا - بعدة رجال يطرحون المعلم أرضاً وينهالون عليه ضرباً مبرحاً. نبحت وقفزت عالياً عاضاً هذا وذاك أملاً بتخليص المعلم من براثنهم، غير أنني كنت أتجابه بعصيهم الغليظة التي هرست ظهري ورأسي وطرحتني أرضاً على بعد متر أو أكثر لأعاود هجومي مجدداً. كنت في كل هجوم أراقبهم يتجمعون للنيل مني بعد أن فقد المعلم وعيه وحمله اثنان منهم إلى سيارة جيب مظللة. عندما طرت من فوق رؤوسهم أملاً بمساعدة المعلم، تفرق كل واحد منهم في جهة ورأيتهم فوقي ما أن سقطت قرب السيارة، ولمحت العصي تنهال من كل جهة. متفادياً لسعاتها المؤلمة قدر الإمكان، كنت أحاول التملص من بينهم، إلا أن واحدة من عصيهم طالتني وأحسست بظهري ينكسر لأقع قرب عجلات السيارة. تحاملت على نفسي وانسحبت بعيداً ما أن رأيت أحدهم يشهر مسدسه ليصوبني. لم أترك له متسعاً من الوقت فاختفيت حالاً خلف الأشجار التي تملأ الساحة المجاورة.

بلحظات دخلوا سياراتهم وسمعت واحداً منهم ينادي عليهم بالإسراع.

من خلف الأشجار جريت ورحت أتبع آثارهم. كنت مصمماً على اللحاق بهم، فلم أكل أو افقد الهمة على الرغم من أوجاعي. تابعت طريقهم لأكثر من نصف ساعة، يدخلون في منعطف شارع حتى آخر فرعي إلى شارع آخر وكأنهم يسحلوني معهم في متاهة مريبة لم أعرف بها ولم أشهد مثلها من قبل. كنت منهكاً وجريحاً وغصة تخنقني لأنني فشلت بحماية معلمي من قسوتهم. لم تمر سوى دقائق حتى لمحتهم يخففون السرعة ويتوقفون عند بناية كبيرة محاطة بأسلاك شائكة وأشجار عالية. فتحت لهم البوابة بسرعة

وغاصوا داخل البناية. غابوا في الداخل ولم يتيحوا لي الفرصة للدخول وتتبعهم. درت لأكثر من دورة حول البناية آملاً بالعثور على فتحة أو نافذة للتسلل دون نجاح.

بقيت في مكاني قرب البناية الغامضة، أتفكر بما عليّ أن افعله حتى سمعت صوت سيارة دورية تقترب وتسلط أضوائها عليّ، ومن ثم تزعق صفارة إنذار صارمة مع تقدم السيارة باتجاهي. ركضت وتابعتني السيارة من شارع لآخر حتى أضعتهم ولم أشعر بآثارهم خلفي.

كنت موقناً بأنني أعرف مكان اعتقال المعلم وأنني سأرجع له صباح اليوم التالي. ما أن شغلت بالي بذلك حتى أحسست بحبل يعقد على رقبتي وغرزة أبرة كأنها طلقة نارية تنهش جسدي. لم أتمالك قواي فوقعت مغشياً علي دون وعي ودون أن أرى وجوه منْ وقعت بقبضتهم.



محنتي في أيام حبسي
وما لقيته من مفاجآت أخرى

عندما أفقت من خدري، وجدتني مرمياً رمية الكلاب - سحقاً لهذا الوصف! - في زريبة ملأى بالبراز والقاذورات وروائح لا تُدرك. لم تكن شبيهة ولا حتى زرائب كنت قد رأيتها سابقاً أو شاهدتها في التلفزيون. كانت عبارة عن قفص حديدي ضخم مقسم إلى وحدات يفصل بينها أسلاك شائكة، والتلاقي الوحيد يتم عبر النظر من قفص لآخر.

كنت ما أزال مخدراً وغير قادر على القيام بالتحرك بقوة وحرية. كل شيء بدا لي وكأنه حلم بشع من تلك الأحلام التي نقاوم بشتى الوسائل كي لا تطالنا، وما أن تحضرنا حتى نرغب بالاستيقاظ فوراً. لكن ذلك لم يكن بالحلم إطلاقاً، مرمياً ما زلت لا قدرة لي على تحريك عضلاتي، تذكرت - أو جاء على بالي بغتة - كل ما جرى لي والمعلم البارحة، فأدركت أنني قد رميت في حبس طويل. تفكرت أن أولئك الصيادين لا بد وأن تبعوني من مكان لآخر كي يتمكنوا من الإيقاع بي. إذ بعد أن حظوا بصيدهم الأكبر، صاحبي المعلم، وأودعوه حبسهم ذاك الذي لم أستطع سبر أغواره، راحوا ينتظرون سقوطي بين أيديهم، وهذا ما حصل.

بدأت أحس أنني لا بد وقد فقدت كل قدراتي التنبيهية، إذ إنني في الآونة الأخيرة لم أعد أشعر بما يجول حولي... كيف لم أشعر بحركتهم جواري؟ وهذه ليست المرة الأولى التي تحدث لي مما جعلني موقناً أنني قد بدأت الدخول بالعد التنازلي لنباهتي

المعروفة، أمضي بالدخول قليلاً قليلاً بمرحلة ما بعد الشباب، إن لم أقل الشيخوخة المبكرة! هذا يضاف له ما أصابني من عراك مضني مؤخراً قد أنهك جسدي وأضعف قواي. كل هذا ولابد كان سبباً أنني لم أعد بقادر على تأدية مهامي التي خلقت وولدت وتربيت عليها. إذا كان هذا لم يعد يهم معلمي أو لم يعره أهمية كبرى، لا بد أن يهمني شخصياً وإلا معناه سقوطي الدائم في أكثر من حفرة... وهذه أولاها!

أفكرُ كيف يمكنني التصدي للصيادين والهروب من متاهتي الجديدة؟ لا جواب...

قبل أن أفيق كلياً وما زلت لا أستطيع حتى تدوير رأسي لأرى ما يحيطني، سمعت من خلفي صوته المبحوح وسلامه الغريب على سمعي:

- ها قد استيقظ كلب الصيد المُصاد!

لم يهملني لحظة واحدة فكان أن نط بكل جسده ليرتمي قرب رأسي.

رأيت فيه كلباً قزماً بأنف مشروم وجلد محكوك تماماً، لكن له نظرة عميقة وتكشيرة توحي بالأمان.

- اسمي "جرو" يا كلب الصيد المُصاد، حارسك منذ ليلة البارحة... بل أكاد أجزم أنه لولاي لأكلتك هذه الكلاب الجائعة... لا تقلق من شيء فما زلت تحت حمايتي.

دققت النظر به وما وجدت فيه كل هذا الذي يحكيه لي، ذلك أنني لو رأيته في مكان آخر لعطفت عليه بعظمة ولتجاهلته تماماً. ابتسامته المحييّة وتقربه مني جعلني أشكره وأصدق - ولو بهذه المناسبة فقط - بكل ما قاله لي.

- اسمي ليدر. قلت له معرفاً بنفسي.

- لا عليك يا كلب الصيد المُصاد، كلنا ابتكروا لنا أسمائنا، ولكن الأهم أنك الآن حر وتستطيع انتخاب ما ترغب.

- حُر... كيف هذا؟ ما أره أننا في قفص سجن بأسلاك شائكة.

- آه هذه.. حقاً.. ذلك لأننا من صنف معتبر وإلا لكان نصيبنا القتل والرمي في المزابل والأنهار... أم أن هذا لا يعجبك يا كلب الصيد المُصاد؟

طلبت منه أن يسميني "ليدر" وأن يترك مناداتي بكلب الصيد المُصاد. ثم أنني عقبت بأن السجن واحد لا يختلف سجناً عن آخر إلا بالقسوة والأوامر المشددة.. أما الحرية فأمرها لا علاقة له بما نحن فيه!

- آه، أنت كلب صيد متفلسف إذاً.. تعجبني أكثر.. ولكن أقول لك أن تستعيد قواك وتنهض وإلا فلا أمل لك بالبقاء حياً، فأنا وحدي لا أستطيع حمايتك للأبد!

قال هذا ونهض مزمجراً ليركض باتجاه مجموعة من الكلاب، أحسست بها تقترب منا. تلك اللحظة أدركت فقط مدى جسارته إذ تصدى فعلاً للكلاب كلها، والتي كانت تراقب وضعيتي ولا بد أنها قد وصلت قربي لتنهش من لحمي كما حذرني "جرو" أو على أقرب توصيف لتعلن لي قوتها وسطوتها.

تحاملت على نفسي ووقفت. آنذاك وحسب أدركت - إضافة إلى حبسي - أنني محاط ببحر من كلاب مختلفة الأصناف والألوان والنباح. ما أن قمت وتأملني الجميع حتى بهت نباحها ولوى كل كلب ذيله ومضى حتى زاويته مفكراً بما ينوي عمله في أوقات أخرى. شممت فيه خوفهم، نفس الخوف الذي أشمه من طرائدي وأنا طالما تصيدتها دون أي عناء. أما "جرو" فقد استمر بنباحه ومكشراً عن أنيابه. ما أن رأى كل شيء قد استتب حتى عاد بأنظاره نحوي وقال

كمنْ أدى واجبه على أكمل وجه: "لا تقلق.. خلص.. كل شيء عاد لمكانه، لن يقتربوا منك بعد الآن!!".

كان معتزاً بموقفه رافعاً رأسه بشكل بدا لي فيه وكأنه أكبر من حجمه الحالي. لم احتج عليه ولم أعلق بشيء. عدت حتى مقعدي قرب الأسلاك الشائكة وانبطحت براحة.

جلس "جرو" كذلك ودون أن اطلب منه ذلك حدثني عن سجننا، قائلاً:

"نحن محظوظون لأننا من فصيلة ممتازة، نادرة كما سمعتهم يتكلمون، غالية الثمن، لذا لم يرمونا برصاص حي ولم يتخلصوا منا بطريقة مزرية. لهم معرفة كبيرة بنا.. أنا على الأقل.. لا أعرف حقاً من أي فصيلة أنت؟ لا بد أن تكون مهماً أيضاً وإلا لما جيء بك هنا. البقية قتلوهم ورموا جثثهم بأقرب ساقية أو ملأوا بها براميل القمامة، لا بد أنك قد رأيت جثثهم المتناثرة في المدينة. لقد ازداد عددنا مؤخراً وأعلنت البلدية أن الوقت قد حان للتخلص من الكلاب السائبة، هم يسمونها هكذا، تلك الكلاب بالطبع، وليس نحن. نحن كلاب عائلات وننتمي...".

صمت جرو فجأة وبان الحزن على وجهه وكأن شيئاً ما قد نغزه وحثه على الصمت.

شعرت بما جرى لـجرو ولكنني لم اجرح مشاعره بسؤاله أين كان يعيش ومع أية عائلة؟ أو ما الذي جرى له حتى يقع بأيدي صائدي الكلاب ويصبح نزيل هذا السجن الأبدي؟. من نظراته الحزينة وانشغاله بلحس جلده المنسلخ أدركتُ أنه لا بد وأن مرّ بظروف عصيبة. أنْ ترقبْ جرو الثرثار المعتز بنفسه وهو على هذه الحالة من الصمت والقنوط، يصيبك بالحزن حقاً ويؤكد لي أننا في طريق مسدود ولا آمال كبرى بنجاتنا. تذكرت حالتي فمددت خطمي

مع جرو ورحنا بدوامة تفكير بين مد الحزن العميق وجزر الشرود المستحيل.

لا أعرف كم مر من الوقت - كنت قد تعافيت تماماً من خدرْ الأبرة التي زرقوني بها - حتى سمعت مثل الكلاب الأخرى منْ يقترب من قفصنا بضجة معهودة على ما يبدو للجميع. فكان أن قفز جرو بغتة وراح يسابق الكلاب حتى فتحة القفص الرئيسية. من زاويتي لمحت رجلين يحملان قدراً ضخماً، واحد منهما يطرق بقوة على غطاء القدر منادياً ومهيجاً الكلاب أما الآخر فكان يرمي ما يغرفه من عظام وقطع شحم ووذرات لحم عافها الدهر تصم روائحها العفنة أنفي وأنا على بعد كبير منها. لم أعتد على أكل الجيفة، فالمعلم كان يغذينا بأفضل اللحوم وأزكاها ولم نكن نضطر للبحث عن الحيوانات النافقة إطلاقاً. لم يعد يهمني شيئاً ولن أتصارع مع الكلاب ما دمت قد هجرت اللحوم والدم منذ زمن.

لم يهدأ نباح الكلاب، وما أن رمى رجل القدر بحصة بدت له مناسبة حتى لمحت الكلاب تنهش بعضها بعضاً أملاً بالحصول على حصة كبيرة. من زاويتي رأيت كيف يطير جرو عالياً ليحط وسط كوم العظام لألمحه من جديد طائراً بلا أية عظمة. كلما أقترب جوبه برفسة ونباح وعظة. كان المسكين يقاوم وفي كل مقاومة ينسلخ جلده، لكنني لم أر كلباً ملحاحاً في طلبه مثلما عليه جرو. عندما حصل كل كلب على حصته، بعض الكلاب القوية أكثر من حصتها بقطعة أو قطعتين، لمحت جرو يعود برأس محنية وعينين خجلتين حائرتين لا يعرف ماذا عليه أن يقول أو يفعل أكثر من لحس جراحه المضافة لجراح سابقة لم تندمل.

قبل أن يصل حتى زاويتي، قمت من مكاني باتجاه الكلاب الأخرى ووقفت أمام أكثر الكلاب جشعاً ونبحته بهدوء ولطف أن

يمنح جرو حصته من الشحم والعظام، ولما لقيته غير عابئ بي، بل لمحته يسخر من طريقتي بالحصول على عظمة بشكل لم يألفه، قلت مع نفسي إن الفرصة قد حانت وإلا فلن احصل علي شيء. عدلت من هيأتي ورفعت رأسي بشموخ ونبحت بقوة وضجة عالية فاجأته وفاجأت الآخرين لأنهيها بتكشيرة لا تخطيء. جفل الجميع وتركوا أكثر من عظم وقطعة لحم على الأرض وولوا أدبارهم دون أن يواجهني أحد. أومأت لـ جرو فجاء راكضاً وحمل عظماً وقطعة شحم. رجعت إلى زاويتي ورأيته يتبعني سعيداً بكسبه. وضع جرو حصته أمامي وشكرني. كان ينظر لي بعين الامتنان وبالوقت نفسه يستغرب من أين جئت بكل تلك الجرأة والإصرار على مواجهة عصابة الكلاب تلك.

بقي جرو هادئاً بانتظار إشارة مني وأنا ألمح لعابه يسيل متمعناً بالعظم الشهي وقطعة الشحم، قلت له: "كُلْ أنت يا جرو، لا تنتظرني!".

"وأنت؟" سألني.

- لا أستطيع.

- آه لست قوياً لتقطيع العظم وتهشيم الشحم، لا عليك سأعدها لك بنفسي.

وقبل أن ينشغل بمهامه، أوقفته بهزة من رأسي وأخبرته قائلاً:

- أنا نباتي لا أكل لحماً.

كان جائعاً، بل يكاد يقع على الأرض من تضوره جوعاً، مما جعله لا يبد اعتراضاً، إلا أنني رأيت في عينيه شكاً أو عدم فهم. غير ذلك فقد انشغل بكل همة بعضعضة العظم وتقطيع الشحم ولم تند عنه كلمة واحدة أو نباح حتى جاء على آخرها.

انبطح قربي وعلق: "إذاً تقول أنك لا تقرب اللحوم.. آه.. هل

تقصد أنك تعجبك الأعشاب والفاكهة.. لاتقلق سأحصل لك منها ما ترغب... والسمك، هل تأكل سمكاً أم لا؟".

ثم تجشأ وراح يحك جلده النازف ويلحس برقة متحملاً آلامه بشكل لا يمكن تخيله بـ"جرو" نحيل وصغير البنية مثله. غفا مطمئناً إلى جواري، وعلى ما يبدو ببطن ممتلئة وللمرة الأولى منذ أشهر.



أيامي الطويلة بالحبس،
واللقاء الذي لم أتصوره أبداً

الأيام تجري بوتيرة واحدة في سجننا الإجباري.

لم أعد أقوى على تحمل وضعي، ليس هناك من فضاء واسع كي امارس هوايتي بالجري هنا وهناك. كل يوم احن بشدة لأيام الصيد وحرية المطاردة والتجوال في شوارع بغداد برفقة المعلم وهو يريني من معالم المدينة ما لا يمكن أن تقرأه في كتاب أو تسمعه من أحد غيره. كل هذا مضى ولا رجعة فيه مسجوناً في قفص ومحاطاً بأسلاك لا حيلة لي بالانتصار عليها وقهرها. أما الحديث عن قراءة وكتب فسيكون بمثابة ترف فوق العادة، هذا إن تركك الآخرون بحالك ولم يتندروا عليك.

مرة سألت فيها جرو خفية إن كان يستطيع أن يحصل لي على كتاب أو بضعة وريقات من مجلة. لو لم أكن قد عرفته بعد معاشرة أيام وليالي، لقمتُ وسحقته بضربة واحدة وأنا أراه يقع على ظهره مقهقهاً ملء فمه من طلبي، ولم يهدأ حتى عرف أنني جاد بطلبي. كانت المرة الأولى التي يسمع بها عن كلب صيد قارئ، لذا عذرت له خَرَقه وتندره مني.

إضافة لما يلقون لنا به من طعام فاسد لا يكفي كل الأفواه المتنازعة، كانوا بين حين وآخر يقتربون من الأقفاص ويفتحون محبس المياه ويقوم أحدهم بتمرير أنبوب الرش من جهة إلى أخرى كي يغسلوننا - الأحرى ينقعوننا - وينظفون الزريبة مما تكوم بها من قاذورات وبراز ومخلفات طعام راكدة وملتصقة بالأرضية.

غير ذلك، كان الجميع ينتظر فرصة يوم واحد من الأسبوع، لأنهم يفتحون لنا البوابات ويطلقوننا في الباحة العامة التي تتسع للمئات من الكلاب. هناك تلتقي بكل الكلاب المحبوسة في الأقفاص الأخرى. في الواقع كان عبارة عن انتقال من قفص صغير محاط بأسلاك شائكة إلى قفص كبير بأسلاك شائكة أيضاً. لم يكن شيئاً كبيراً أو تغيراً جذرياً، لكنه مع ذلك كان مناسبة للتجمع والجري والإلتقاء بوجوه جديدة. كان جرو قد اخبرني بأن هذه الفسحة فرصة مناسبة للتغزل بالكلبات القليلات في المحبس. لم تكن هناك حدوداً والكل يختلط بالكل. بل علمت أن الجميع ينتظر هذه المناسبة للحصول على صحبة أو لقاء سريع في زاوية أو أمام أنظار الجميع. كل شيء يصبح ممكناً لنا في هذا اليوم الحر. حزرت تلهف جرو من التفاصيل التي ذكرها لي، مع ذلك كنت موقناً أنه بهيئته المزرية وضعفه لن يحضى ولو بشم مؤخرة كلبة واحدة.

ما أن أطلقونا إلى الباحة الكبرى حتى رأيت الجميع بتسابق وهرج من جهة الى أخرى. أفرحني أنني بعد أيام طويلة قد حزت على مساحة مناسبة لترييض قدمي اللتان أصابهما الوهن. تركت الجميع في هياجهم، لم أرّ جرو حتى ساعة عودتنا، فقدتُ أثره بعد أن راح يتنافس مع مجموعة من عشرة كلاب وراء كلبة مسكينة مذعورة ومحاصرة عند زاوية في أقصى اليمين. عندما أدركت أنني قد اكتفيت من تجوالي الدائري، رقدت في زاوية بعيدة ورحت أتأمل الصخب الهادر. لم ألمح من مطرحي غير تطاير الغبار ولم أسمع غير النباح المتواصل علامة التوجع، الكسب أو الفشل.

من موقعي كنت أراقب كيف نتحول من ليلة لضحاها إلى كواسر لا نتبع سوى مصالحنا وغرائزنا. ليس بيدي حيلة كي أعلمُ الجميع أو أوبخهم على أفعالهم. لم تكن لي قدرة سحرية على ذلك... ليس

لي قدرة أبداً!

لم يمر وقت طويل حتى سمعت صوته الساعل:

- لا بد أنها المرة الأولى لك؟

درت لأتعرف على صاحب الصوت. كان شيخاً، كلب من فصيلة عادية وإن تبينت فيه بعض خصال من كلب صيد قطبي من تلك المسماة بالـ"خاسكي" غير أنني لم أجزم بذلك، بالإضافة لعجزه، فقد فقد لون شعره وسقط أغلبه نتيجة مرض خطير أو جرب قاتل. ما أن رآني أتأمل هيأته حتى طمأنني أن لا خوف من أن ينقل لي عدواه، فمرضه الحقيقي هو اليأس أكثر من شيء آخر. عندها فتحت فمي وأجبته:

- نعم هي ذاك. كلنا لنا مرة أولى حسب ما عرفت.

ضحك الكلب الهرم وبانت لثته المجروحة عن أسنان ساقطة والمتبقي منها سوداء منخورة، سعل وتمخط قبل أن يرد عليّ:

- هنا قد يصلك الدور سريعاً أو تهرم ولا يبقى تحت جلدك لحم يذكر كما عليه حالي. عليك أن تتحمل وتتعود الانتظار أو الخلاص الذي تشتهيه مع تقدم العمر.

أطلق زفراته من فم خاو وقوة خابية. شعراته البيض ملأت لحيته وحاجبيه وما تبقى من شعر جسده بالكامل. عرفت أنهم هنا يسمونه بـ"الجد" ولم أفهم سبب وجوده بيننا لطالما أنهم ينتخبوننا واحداً واحداً لسبب معين، أو حتماً بلا سبب وإلا فلا تعليق لي على حالة الجد.

- لا تصدق بالأقاويل - قال الجد - الكل يعتقد أننا هنا لسبب مهم. الحقيقة أننا هنا مصادفة لا غير. كان من الممكن أن نكون من ضمن الجثث الطافية في النهر، ولسبب لا يعلمه إلا السجانون ما يجعلنا على قيد الحياة. من طرفي تمنيت لو كنت بجانب جثث

عائلتي التي لم أستطع حماية حياتهم وإلا ما معنى حياتي في هذا السجن القاحل.

- آسف حقاً.. ماذا تعتقد أنهم ينوون عمله معنا؟

- معي أعرف النهاية وإن تأخرت طويلاً. أما أنت والآخرون فالحقيقة أجهل ذلك. لا أريد أن أحبطك، قد يكون مستقبلك آمناً، لكنني أعتقد أننا جميعاً سنكون حطب لمحرقة كبرى. أنظر هناك... ألا تشم الروائح؟ ألا تسمع صوت المكائن العملاقة؟

رفعت رأسي لأتمعن المكان الذي أشار له. لمحت من هناك فوهة عالية تنفث دخانها الكثيف ليس ببعيد عن أقفاصنا ورجال يدخلون ويخرجون بعربات حمل أجهل ما تضم فمكاني بعيد عنها. كان المكان يشبه معملاً ضخماً بمراجل عملاقة تنفث دخانها بلا توقف.

- إذاً كلنا نمضي إلى التهلكة.. لا أمل بأي شيء.

- الأمل هو الشيء الأخير الذي يجب التفكير به هنا. أنصحك أن تحاول الهرب لو استطعت، ما زلت شاباً وقوياً، حاول وإلا سيكون مصيرك مع العجزة من أمثالي والأغبياء اللاهين دون دراية.

صمت الجد وراح في موجة تفكير. قبل أن تتمركز كلمة الهرب في رأسي على وقع أصوات المطارق والمكائن الجاثمة قرب أقفاصنا، لمحت من بعيد غيمة غبار تتأرجح وتقدم باتجاهي تماماً. شيئاً فشيئاً بدأت أتبينها. في المقدمة منها تسير كلبة مجهدة، عظامها نافرة وتسحل جسدها سحلاً بثقل بطن منتفخة، على جانبيها يحيطها كلاب من أصناف وألوان متنوعة، كان من بينها جرو. الكل يحاذيها دون أن يعرقل سيرها، يشم رقبتها أو عجيزتها بينما هي لا تأبه بكل شجارهم وتنهيداتهم.

وقفت أمامي ممعنة النظر بوجهي. ما أن رآها الآخرون مصممة

على الحديث معي ولا تحفل بهم، انسحبوا كل إلى جهة أخرى بحثاً عن طعم آخر.

لـم تصبـر طويلاً، جثمت قربي على يمين الجد الغافي. أراحت بطنهـا المنتفخـة ومـدت قدميهـا المسـحوقتين بهـدوء قبـل أن تقـع بمواجهتـي. وجههـا لـم يبحـث عن شـيء آخر سـوى تعابير وجهي. المفاجأة أخرسـتني وانتظرت أن تبدي أسـبابها وهي تتقرب مني. لم أكـن مهتمـاً بالمـرة بالوصال، كما أنني لم أبد ما يجعلها تظن بذلك. كنت محترساً وبالوقت نفسه مطمئناً لها بسبب من ابتسامتها - الواهنة نعم - الواثقة الحميمة.

- ألم تتعرف علي بعد. سألتني

- عذرك، هل إلتقينا سابقاً.

- طبعاً، وهل يمكنك الشك بذلك وقد خرجنا من بطن واحدة.

صرخـت "لا يمكـن ذلـك، هل هـذه أنتِ يا أُخيتـي"! وطفرت لأعانقها.

لم يكن هناك شك من أنها شقيقتي، لها عينا امي وحاجبا أبي، أذنها اللاصقة بالرأس من الولادة جعلني متأكداً أكثر.

"ولكـن كيـف وصلـت إلـى هذا الحـال.. خبرينـي.. ماذا جرى لك؟".

تنفسـت شـقيقتي، اغمضـت عينيهـا وراحت تقص علي مشـوار حياتها بعد خروجها من بيت المعلم، دون أن تتوقف لتوضيح ما أو تنتبه للذين يقتربون منا، فقالت:

"تعلـم أن المعلـم قـد أهدانـي إلى أحد أصدقائـه الذي حملني بـدوره لأعيـش فـي مزرعـة يملكها عنـد أطراف بغـداد. كنت أمضي الأيـام لوحـدي، أحـرس هنـا وأطـوف هنـاك. لم يـزر المزرعـة أثناء وجـودي سـوى مـرات معـدودات. لم ألـق اهتماماً يذكـر لا منه ولا

من عائلته، اهتماماً مثل ذاك الذي يذكرني بألفة وحنان بيت المعلم. فقدت بظرف أيام كل شيء ثمين بحياتي، بيتي وعائلتي.. لقد عرفت أنني فقدتكم إلى الأبد يا ليدر. كنت أحن لكم بشدة، غير أنني أدركت أن نصيبي من الحياة لن يخرج عن البقاء بالمزرعة والتطبع عليها. كان أبناء صاحب المزرعة يسومونني شتى أنواع العذاب والضرب بلا مبرر، بل كانوا يتركونني مربوطة بحبل سميك شد على وتد في العراء، وكنت أظل بهذا الحال طوال أيام اختفائهم عن المزرعة.

ذبلت ووقعت صريعة الجوع والهوام والطقس، أخرُ صريعة وأتحامل على نفسي أن يجيء يوم جديد أراهم فيه يفكون رباطي ويرحمون لحالي، لكن لا شيء من هذا حصل. كدت أن أوشك على الموت حقيقة بعد أن مرت الأيام وفقدت كل أمل بالنجاة.. لكن الحياة عادت وابتسمت لي بسبب من مرور كلب مصادفة من مزرعتنا. لقد رأف بحالي وهو يراني مرمية لا قدرة لي على الحراك. رافقني تلك الأيام معتنياً بي وبجراحي وصائداً لي طعامي. اقترنت به وكنت سعيدة رغم ما عانيته من العائلة السيئة، ذلك أنني وجدت برفقة زوجي ما عوضني عن معاناتي بفقدكم. حملت منه بجروين جميلين، ما أن علمت العائلة بذلك حتى نصبت لزوجي كميناً وقتلته شر قتلة ورمت بجثته لخنازير الأدغال. ما أن شب الجروين حتى اختطفوهما مني وطردوني من المزرعة مع الوعيد بالرمي لو اقتربت منهم.

لم أعثر على أي طريق مناسب، هائمة على وجهي لا أعرف من الطريق شيئاً ولا دراية لي بالمدن ولا المزارع. الحظ كما ترى أوقعني بمصيدة صائدي الكلاب بعد أسابيع من التشرد والخوف، ومنذ تلك اللحظة حتى اليوم وأنا هنا في هذا السجن، لا علم لي بما عليه مصيري ولا ما ينوون عمله معي".

كانت تنوء بألم الحمل مجدداً، وكنت أخفف عنها. لم اسألها كيف حصل لها هذا لطالما أن الإجابة أمام عيني وأنا أرى الكلاب الهائجة خلف الكلبات.. طمأنتها ورحت ألحس لها رأسها وأتحسس برأسي بطنها المنتفخة.

أخبرتها بما جرى لنا من مصائب وما حدث لوالدينا فأجهشت بالنواح، علا نباحها غاصاً بعبراته، راحت تولول أكثر عندما سردت لها وقائع ما جرى للمعلم وبيته. أخبرتني بدورها كل ما تعرفه عن شقيقتنا الأخرى، قالت أنها علمت بأن العائلة التي تبنتها حملتها معها إلى دولة خليجية. سمعت من آخرين أنهم هناك يقدرون كثيراً صنفنا الأصيل، غير ذلك لم تعد تسمع من أخبارها شيئاً. أما شقيقنا فقالت والحسرة تتملكها أنها لا علم لها بما مضت عليه أيامه، مثلي تماماً!

أمضيت اليوم كله في تناجي وتذكر مع شقيقتي. كما أنني تعاركت مع جماعات كلبية لكي أحصل لها على وجبة طعام مناسبة كي تساعدها على تحمل حملها. على ما يبدو أن أياماً عديدة قد مرت دون أن تتذوق طعاماً ولا شراباً. مما حصلت عليه من أطعمة، منحت الجد شحمة طرية، وخبأت كسرة عظم هش من نصيب جرو الذي كان منشغلاً بمناجاته العاطفية أكثر من تطمين جوع معدته.

احتضنتني طويلاً قبل أن يفرقوننا كل إلى قفصه المشترك. لمحت الدموع مكتظة في عينيها وهي تودعني: "قد لا نلتقي مرة أخرى، لا تنسني رجاء، لا تنسى شقيقتك التي أحبتك دوماً".

بقيت الأيام الأخرى أتجسس على أخبارها. ساعدني بذلك جرو بما يسمعه من الآخرين. أسبوع واحد قبل مغادرتي القفص نهائياً، علمت أنهم نقلوها إلى مكان مجهول بعيداً عن السجن. لم يخبرني جرو بالقصة كاملة، لكنني خمنت أطرافها. لم أرد لذاكرتي أن تصنع لها نهاية مما أسمع من الأفواه المخبرة، تصورت لها مع نفسي

حكاية وافقت على أن تكون هي تلك حكايتها ولا شيء آخر: فكرت أنهم قد حملوها إلى بيت آخر تبناها وأنها تعيش هناك مرتاحة برفقة جرويها الصغيرين، تتغذى بشكل مناسب وتتأمل الشمس الساطعة كما اتأملها الآن، بينما تحيطها عائلة رئيفة في مزرعة كبيرة ويقوم على خدمتها ناس كثر وتلبى طلباتها دون أن تزعج نفسها بتحريك قدمها خطوة واحدة.



وقائع مجاعاتنا ومعاركنا
التي لا نهاية لها

الأيام تمضي بإيقاع بطيء. لا شيء جديد في الحبس غير الانتظار أو حدوث معجزة.

كنت أمضي أغلب وقتي برفقة الجد الذي لا يكل وهو يكرر نبوءته عن محرقتنا القادمة. حدثني بشكل مبتسر عن فترات شبابه وعن نزواته آنذاك وعن أعمال مارسها لم أسمع بها ولم أعرف للكلاب طاقة على أدائها، ومع ذلك لم يبح لي عن أسباب تواجده هنا ولا أي شيء آخر عن ماضيه القريب. كان جرو يقاطعنا بين حين وآخر، كما لم يكف عن عادته بالتجسس هنا وهناك ليأتينا بالأخبار سواء رغبنا بسماعها أم لا. إذا كان الجد ينط من حين لآخر بحكمة ما أو خبراً قديماً، أحياناً يدوخني بألغاز أطراف مما عاشه وقام به في شبابه لأماكن وأحداث بدت لي قديمة أو لم أسمع بها قبل ذلك. فإن جرو لم يكن يمل من الثرثرة، كانت أخبار حكاياته متشعبة تماماً مثل جلده الذي أتمعنه يُسلخ أكثر وأكثر كل يوم. لم يكن كلب صيد مميز ولا بمواصفات مخيفة مع ذلك كان يدخل في معارك خاسرة لأتفه الأسباب. في كل مرة أؤنبه على ما يجر نفسه لها، وهو بدوره يؤكد لي أن سلخ جلده ليس بسبب المعارك - التي يجدها مُسلية وتُسرع بمضي وقته الفائض - بل لأسباب أخرى لا نتصورها ولن نصدق بها. ولأنني كنت معتاداً على تخريفاته لم أعر لتصريحاته انتباهاً. مع ذلك فـ جرو كان وفياً وصديقاً حميماً، لم يدعني في وحدتي أُقلي الأفكار التعيسة، بل دائماً ما كان يجيئني بفكرة أو خبراً مسلياً. آخر

مـرة وبعـد أن وصـل بي عذاب الحبس مداه ورحت أجول من زاوية إلى أخرى نابحاً بكل قوتي مما أجفل الجميع وجعلهم يصمتون في أماكنهـم دون أن ينبسـوا بـأي صـوت، حتى بوضعي هذا، اقترب مني وبصوت خفيض قال لي بطريقة كلامه المتقطعة:

- لا تجزع.. أسـرك أن الخلاص قريب.. سـيكون ذلك بظرف يومين.. أعـدك.. إن لـم أف بكلمتـي لـك أن تصفنـي بالـكاذب.. بالدجال.. أو أن لا تكلمني أبداً.. أعدك بذلك.. يا.. يا ليدر!

لـم أفهـم منـه كل مـا يقول، لكـن لكلمات مثل كلماتـه، أحياناً وبداعـي إقنـاع النفـس، لها وقع البلسـم أو الشـراب المهـدئ. أحياناً وبعـد كل هـذا التاريـخ أعتقـد أننـي مديـن لـجرو بكل فتـرة تحملي وصبري الطويل في محبس الأسلاك الشائكة. فلا معرفة عندي كيف ستكون لو لـم أحظ بكلب كـجرو وجمله وألغازه المطمئنة.

كان النـوم يجافينـي، فأبقـى الليـل متفكـراً بـكل مـنْ تركت من أحبـة: صـورة أبي السـلوقي مهـرولاً خلف أرنب مبقع/ ابتسـامة أمي السوبويسـو الخارقة وهي تلحس على وجهي/ شـقيقي العملاق مثل أبي الصامت دائماً ولغة حوارنا السرية/ شـقيقتاي المليحتان/ والأكثر من ذلك صورة معلمي التي لـم يبق منها في رأسي غير هيأته المدماة والمجـرورة بقسـوة حتـى عمـق تلـك السـيارة المظللـة... ليس هذا وحسـب، كثيـراً مـا يعاقبني ضميري الذي يتجسـس علـيّ أثناء نومي فيفاجئني بتراتيب حياتي الماضية، الأرانب وطيور الحجل والسـمان الميتة بطاحونة أنيابي تقوم من غفوتها وتتبعني، تنبح نباحاً يشبه نباحي وتمضي نحوي بمسار لا يخطئ هدفه، وأيضاً الخنازير والغزلان، دم مـن كل جانـب، لا مفـر فالدمـاء تطفر وتصبغني صبغـاً، أحمرها هو الحقيقـة الوحيـدة في كوابيسـي المتتاليـة.. لا أمل لي بنوم هنيء، لذا أمضـي مفزوعـاً من زاويـة لأخرى، متعباً قدماي ومروضاً طبعي على

حجم أمتار المحبس.

هـذا اليـوم وقبـل أن يضـع جـرو أمامي قطعة سـمك معضوضة لا أعـرف كيـف حصـل عليهـا، أخبرني في أذني بأن أسـتعد وأتجهز ليوم غد (لقد وعدتك أليس كذلك؟!) بتحضير نفسي لمفاجأة كبيرة (سـارة، أكيـد، ثـق بكلامي) مـا أن يطلقونا في الباحـة الكبرى. أنهى كلامه وراح يغط بنومه دون أن يشـرح لي أي شـيء من الممكن أن يساعدني على الهدوء والخلود لغفوة مثله.

عندما نهضت صباحاً - بعد إغفاءة بالكاد طالت السـاعة - لم يكن على إثر جلبة الحراس وأصواتهم الآمرة ووقع القدور الضاربة، لم يكن أي شيء من هذا. نهض الجميع لتصاعد نباح الكلاب المطالبة بحصتها من العظام والشـحم، وانتظاراً لفسـحتها الأسـبوعية. لم يكن هنـاك أي أثـر للحـراس، اختفوا بنفخة ريـح الليل، بل حتى الحارس المعتادين على رؤيته كل ساعات النهار والليل لم يعد موجوداً. نبح الجميع بنشـاز، بتصاعد، يتفاقم بجلبة عالية يمكن سـماعها على بعد عشـرات الفراسـخ. لـم يعـد من أمل لحضور الحـرس (هل كنا نفكر بالأمل بحضورهم حقاً؟!)، اختفوا دون سبب مقنع بالنسبة لنا ودون أي توضيح، هكذا مضوا دون أن نشعر برحيلهم.

سـمعت تعليـق الجـد مـن خلفـي: "لا بـد أنهم قد هربـوا بعيداً لينقـذوا جلودهـم، وليحولـوا الأقفاص كلها إلى محرقة ضخمة بضخ الغـازات فـي كل طـرف.. لا داع لنقلنـا واحـداً واحـداً حتـى أفـران الصهر".

سـمع جميع منْ كان في قفصنا كلمات الجد وآمنوا بها وبدأوا بترديدهـا، وإن لـم يعرفـوا كيـف سـيتم هـذا الحـرق الجماعي الذي يتحدث عنه الجد ولا بأية وسيلة (بتسريب الغازات!!). مع الصخب والنباح والتلاسن لم يكن لنا من حل سوى الانتظار، إذ لم يكن لنا

من مخرج آخر، فما زلنا في حبسنا ومجبرون على البقاء خلف هذه القضبان السميكة.

"الحكومة كثيراً ما أستخدمت غاز الخردل بقتل الآلاف وتدمير قـرى بالكيميـاوي، فلا عجـب إن فعلته معنا" علق الجد وبقي يداور لسانه في فمه وكأنه يمضغ لقمة مُرّة.

بعد أن تحملت نباح وشجار الكلاب فيما بينها بعد اليوم الأول لغياب الحرس، كان يومنا التالي أشد تعاسة وقهراً.

بدأت مجاميع كلاب تتحالف فيما بينها لمهاجمة كلب ضعيف. كانت فكرة مرور يوم آخر بلا طعام شيء لا يمكن تصوره في عقول هذه الكلاب الجائعة الهزيلة والتي لا تقنع بخلاص قادم ولا أي حل ممكن. لم يعد بمقدوري الدفاع عن الجميع، إضافة لضعفي وهزالي المتفاقـم، فدخولـي لوحـدي في معركة شرسـة بالضد مـن المجاميع المتكالبة سـيكون معناه الخسـارة لا محال... كما انني لـم أعد قادراً على قتل أو جرح أي واحد من أبناء جنسي ولا أي حيوان آخر.

عندمـا اشـتد سـعير الأيـام التالية وأيقن الجميـع أن نهايتنا قريبة لا محـال، وأن الحـرس لـن يعـودوا أبـداً، بدأ الواحـد ينهش الآخر، معركـة تبتـدئ مـا أن تخلص أخرى. حاولـت قدر الإمكان أن أهدئ الآخرين دون نجاح، فانزويت ليس ببعيد عن معارك الكلاب الطاحنة بحثاً عن فكرة في رأسي لتخليصنا جميعاً. لم يتركوني بحالي. كنت طـوال اليوميـن السـابقين لا أمضي إلى جهـة إلا ويكون جرو والجد برفقتي. كنت خائفاً عليهما من العصابة الكلبية المتوحشة، كما أنهما لا يفترقـان عنـي لقناعتهمـا بـأن الكلاب الجائعة لـن تقربهما ما داما جواري.

لكن الساعة اقتربت عندما حاول جرو، رغم خوفه وجزعه، أن يمضي إلى جهة ما ليسـتطلع أمراً لا معرفة لي به، فكان أن سـمعت

نباحه المستغيث بشكل لا مجال للشك فيه أنه قد وقع في مصيدة عصبة الكلاب الهائجة. ركضت بكل ما تبقى لي من قوة حتى الجموع الملتفة حول فريستها، عديت شاهراً أنيابي ونافخاً صدري بوجوههم. لم يلينوا بسهولة، بل حاولوا الإلتفاف حولي وتطويقي مع جرو وسط الحلقة. لمحت جرو منبطحاً واعياً بحاله وإن كان دمه يسيل من بقعة سُلخت حديثاً مما تبقى له من جلد وبالقرب منه بركة بول ضخمة. كانوا قد قرروا أن يكون ضحيتهم التي لا يحيدون عنها. كنت أنظر بأعينهم، أهدئهم وأتوعدهم بآن واحد. عندما رأوا جسارتي ووقفتي الحاسمة وقارنوا أجسادهم وقسوة أنيابهم بما لدي، لمحت على قائدهم التراخي قليلاً لينفك عضد الحلقة وينسحب جاراً خلفه كلابه التابعة، لمحتهم يجرجرون أذيالهم بعيداً عني، ليس ببعيد للتفكير حتماً بصيد مناسب أفضل من جرو.

سحبت جرو الجريح والمبلل بعرقه وبول الكلاب المهاجمة، وعدت معه إلى حيث تركت الجد لأراه ممدداً بطوله وقضمة كبيرة في فخذه الأيسر. لم أنتظر أكثر فجلت بأنظاري في كل الزوايا، وما أن لمحت المعتدي حتى عديت نحوه وضربته بكل قوة أكتافي ليطير ويرتمي مترنحاً حتى أعلى نقطة من السياج، ليعود حاطاً على الأرض مهشماً ظهره، نائحاً نابحاً ليهرب من غضبي وقد ترك قطعة فخذ الجد مرمية كتذكير بتهوره.

أمضيت اليوم منهكاً وخائفاً من الأوقات القادمة. الوضع يزداد سوءاً وليس كل يوم نخرج من المعركة المتجددة دون خسائر. انشغلت الوقت المتبقي بالاهتمام بـالجد ومعالجة جراحه، لم يكن معنا غير الطين لسد النزف، لصقة ناجعة وهذا كان كافياً لأنه أبدى قوة وشجاعة أثارت دهشتي وانتباهي. لم يكن يتوجع أو لم يكن يبديه أمامي على الأقل، كنت أحس به وغصة خانقة في داخله، ليست

للجرح العميق بفخذه اليسرى، بل من الأوضاع التي نمر بها. أما جرو فلا بد أنه قد اعتاد على السلخ، لأنه لم يبد أي تذمر. بل على العكس، قبل أن تغيب شمس يومنا الخامس بلا حرس، جلس حدي وقال لي:

"اسمعني جيداً يا ليدر، بما أن السفن لم تمض بما يشتهي الربان، بل بما قدرته الريح، لا بد أن أُسرك بأمر مهم. ما تراه من تسلخ في جلدي وغيابي الدائم عنك في تلك الأيام المريرة لها سبب وجيه. بما أننا لن نخرج من هنا ولا بد أن موتنا قريب فلا بد أن تعرف كل الحقيقة. كنت في كل مرة يخرجوننا حتى الباحة الرئيسية، أمضيها هنا وهناك ترقباً لخبر أو حصولاً على كسب جديد يطيل رمق حياتي. في واحدة من خروجاتي تلك - هذا قبل وصولك بقليل - اكتشفت مخرجاً بالقرب من الأسلاك القريبة من غرف الحرس مغطى بالأعشاب، ضيق ومحاط بالأسياخ أيضاً إلا من جزء صغير فيه. كان مفاجأة لي وأعتبرته منذ ذلك اليوم مخبأي السري الذي لم اعلنه لأحد حتى الآن... أعلنه لك وهو سرك أيضاً يا ليدر... كنت في كل مرة أتسلل منه بإعجاز لأخرج حتى البرية كي أصطاد ما أجده بانتظاري، أتنفس هواءً آخر وأعود عصراً قبل دقائق من موعد عودتنا لزنازيننا. كنت في كل مرة لا رغبة لي بالعودة، الرغبة بالهرب لمرة واحدة وأن لا أرجع أبداً، أختفي وحسب... لسبب أو آخر أعود للدخول إلى القفص الأكبر... سابقاً كنت متحيراً من خوفي وهلعي بالخروج للحرية، ولا سبب مقنع لعودتي طائعاً. لكنني بعد أن عرفتك وأصبحت صديقي، لم اعد أفكر به سوى للترويح عن النفس. في المرة الأخيرة وأنا أراك حزيناً مكتئباً جريحاً بكبريائك وكل رغبتك هي الهرب، فكرت أن أعلمك بها واجعلها مفاجأة لك بخروجنا القادم.. ما حدث بعد ذلك تعرفه... لم يعد الحراس ولم

نخرج... لم يحضر الحرس ولا أمل لنا بعد الآن بالوصول حتى المخبأ، النفق السري، نفقي!".

صمت حزيناً لا يلوي على شيء شاعراً بكونه أبلهاً قد أضاع على نفسه وعلينا فرصتنا الوحيدة للنجاة.



الخطة الجهنمية لهروبنا
من مقبرة سجننا الأبدي

لم تنغلق لي عين. جلست طول الليل أفكر بما قاله لي جرو.

لم أكن أشعر بأية حاجة لنوم، كنت متيقظاً أفكر بكل ما حدثني به جرو وما نحن فيه.

درت كل القفص أملاً بالعثور على ما يدلني على حل أو يرشدني إلى بصيص ضوء في عتمتنا هذه. لم يكن هناك الكثير مما لم أره سابقاً. جربت الاقتراب من الأسلاك الموازية لقضبان حبسنا، تحريكها، مراقبة كل ثقب فيها، ولم يهدأ لي بال حتى كنت قد توصلت إلى ما فكرت بأنه من الممكن أن يساعدنا على الخلاص.. وإلا فالموت مصيرنا الأوحد.

في الصباح - ولم أكن قد غفيت حقاً - نبحت عالياً منبهاً الجميع وقد صعدت أعلى صخرة في زاوية من قفصنا. ناديت الكلاب، كل الكلاب أن تنهض من إغفائتها وتنصت لي. ما أن رضخ الجميع - تذمر البعض منها وإن صمت بلا أي احتجاج - لندائي حتى كلمتهم بكل وضوح:

- اسمعوني جيداً لأنني لن أعيد كلامي مرة أخرى. كلنا مشتركون في هذه المحنة، وعلى ما يبدو أن الحرس قد تركونا بلا رجعة، تركونا لقدرنا هنا وسنموت لا محالة إن لم نتصرف حالاً. سنأكل بعضنا البعض، وسننقرض كلنا حتى آخر واحد فينا. حياتنا متعلقة ببضعة أيام لا غير وإن لم نجد حلاً لن يسلم أي واحد منا. انصتوا لي وقوموا بما آمركم به، فهو الطريقة الوحيدة لنجاتنا.

كنت متحمساً مالئاً صدري بهواء الصباح ومقرراً أن لا مجال لخلاف هنا إطلاقاً. لم أكن مستعداً لسماع خلاف ما أقول، لهذا تصرفت بذلك الشكل. لم اكن أفكر بشيء آخر غير النجاة ولم أعمل ذلك متيقناً من شجاعتي، البقاء هو الذي حركني لا غير. رأيتهم يداورون برؤوسهم متسائلين أو منتظرين أن يقوم أحدهم بالاحتجاج أو الرفض. لم يحدث من ذلك شيئاً، فإضافة لوقفتي الآمرة تلك، كان الجميع في حالة يأس وبانتظار منْ يدلهم على الهرب من حالتنا المزرية، فمضيت قائلاً:

- البارحة أوحى لي جرو بفكرة وأعتقد أنها الوسيلة الوحيدة التي بقيت لنا. هناك في الزاوية البعيدة لاحظت أن الأسلاك المحيطة بسجننا ليست من القوة بحيث أننا لو عملنا سوية نستطيع خلعها. يتطلب منا جهداً وتضحية، لذا لا داعي لأن أؤكد عليكم أن نعمل منذ الآن ولا بد أن ننتهي منها وننزع لنا منها فتحة نهرب عبرها قبل المساء أو في الليل على ابعد حال.

دون أن أنتظر إجابة مررت من بينهم حتى نقطة السياج التي عاينتها الليل كله وبدأت عملي قبلهم لأتركه بعد حين لأقرب كلب، مشرفاً على العمل كله ولم يهدأ لي بال وأنا أقترب وأعاين السياج لأتمعن إن كانت قوتنا قد استطاعت قهر الكونكريت الساند للأسلاك. مع مرور الوقت كانت أسياخ السياج قد بدأت تنفلت من حفرها. كنا نحتاج جهود الكلاب كافة وجهد ساعات عمل متواصلة لتحرير سيخ حديد نابت لنبتدئ مع آخر دون أن نتوقف للحظة. علمتهم بسهولة طريقة التناوب والحلقة المتكاملة والتي رأيت المعلم ينتهجها مع المزارعين، الواحد بعد الآخر بتوليفة لا تجهد أحداً دون الآخر، ودون أن يتوقف العمل وبذلك يشعر الجميع بأنه قد شارك بفعالية عالية. بعد مرور وقت مناسب وما أن بدأت الأسلاك تنفرج

شيئاً فشيئاً حتى زاد حماس الكلاب ونباحها. كان جرو أكثرهم تهيجاً واندفاعاً خاصة بعد أن سمع اسمه يذاع أمام الكلاب كصاحب الحل والمبادرة. لم يهدأ من السحب والدفع والقضم رغم ضآلة حجمه، وكنت أراه - يا للمسكين - وقد سُلخ ما تبقى له من جلد، متعرقاً متسخاً أكثر من غيره غير أنني لم أره يتوقف أو يرتاح إطلاقاً.

عندما تمعنت ما أستطعنا تحريره من فجوة مناسبة من بين الحديد النابت، طلبت من الجميع التوقف عن العمل. تنحيت جانباً ورحت أكلم جرو ناظراً له بتركيز ممتناً له ومشجعاً:

- هذه فرصتنا الوحيدة يا جرو وهي بين يديك. أنت الأصغر والأنحف بيننا، عليك أن تضحي أكثر وتحاول الدخول من هذه الحفرة حتى الخارج لتساعدنا بالخروج بفتح بوابة الحبس المغلقة... هل تستطيع ذلك؟

لم أنتظر إجابته، بل قفز بسرعة وبدأ يحشر جسده الصغير ما بين الأسلاك الشائكة التي أستطعنا قطعها. كان يمر وكأنه بهلوان متمرن على حبل الهاوية، لم اسمعه يئن أو يتأوه بينما ألأسلاك تغرز سلاسلها النابتة في ظهره وبطنه وأقدامه، كان يفكها وكأنه يتخلص من حشرة دابة ليمضي بتقدمه. قبل أن يصل النهاية بقليل ويصبح طليقاً، سمعناه صارخاً بقوة ونابحاً بلا كلل. رأيت من مكاني كيف انحشرت رقبته بين سلكين متقاطعين ليلتحما حولها كأنهما طوق مشنقة دامي.

صحتُ بالجميع أن يساعدوني وإلا فالموت نصيب جرو لا محالة. شكلنا حلقة من ست كلاب قوية وبدأنا بكل قوتنا بسحل الأسلاك باتجاهنا، أنيابنا المدماة كانت تجر جراً قاضياً ولم نفك منها حتى رأيت السياج قد توسع بشكل أكبر. لم أطلب هذه المرة من أي كلب أن يقوم بالمهمة، حشرت جسدي حشراً حتى أصل إلى جرو المهدد ببتر رقبته إن تحرك ولو بشكل بسيط. المسكين كان يئن يائساً

مستسلماً لقدر الأنشوطة الحديدية، لكنه ما أن لمحني أتقدم لتخليصه حتى تشجع وصمت عن آلامه التي لا تحتمل.

تشرطَ ظهري ورقبتي ووجهي ونضحت خطوط الظهر بالدماء قبل أن أصل إلى جرو وأفكه من حبل سلك مشنقته. لم يكن سهلاً بالمرة. عضضت بأنيابي على السلكين وتحملت سكين حديدها النابت يشكني شكاً مؤلماً، لكنني في تلك اللحظة لم يكن لي خيار آخر سواه لتخليص جرو ومحاولة الوصول حتى نهاية النفق المعتم. في لحظة حاسمة نبحت على جرو أن ينسحب فمال برقبته يمنة ويسرة وأصبح طليقاً ليتقدمني حتى المخرج. كانت خطوتي الأخيرة للنجاة بدوري أن انغرزت الأسلاك في قدمي الخلفيتين دون أن أبدي انتباهاً بما يؤول له سحبهما بقوة، شعرت وانا أجرهما بأن سكيناً حادة قد قطعتني قطعاً صغيرة لا أمل برتقها ولا شفائها.

تحاملت على آلامي وسحبت نفسي سحباً ووجدتني خارجاً ينتظرني جرو مهللاً ونابحاً بسعادة لا توصف، ليتبعه نشيد الكلاب وهرجها قد بدأ يتصاعد وكأننا قد بلغنا جبل الجلجلة.

لم أنتظر طويلاً لمعاينة جراحي - كنت أنزف من كل جسدي - بل أمرت جرو بالركض معي والإلتفات حتى بوابة القفص الرئيسية. هناك رحنا نضرب طويلاً على الأقفال لكننا لم نستطع تحريك البوابة ولا وجدنا طريقة مناسبة لزحزحتها. طلبت من جرو أن يتسلق ظهري وشرحت له كيفية فتح البوابة بسحب المتراس بأسنانه. كانت أقدامه تتزحلق على ظهري وهو يحاول التوازن، كان ظهري شبيهاً بفوهات ينابيع تنز بدمها بدل المياه، مما جعل العمل أكثر صعوبة. تحامل جرو وراح يعالج الحديد حتى وجد طريقة لقهر المتراس وفتح البوابة أخيراً. بظرف دقائق تلاقينا والكلاب المنتظرة على الجانب الآخر من البوابة، فخرجت هائجة مستبشرة تتراكض هنا وهناك دون توقف،

يصل بعضها حتى الباحة الكبرى والبعض الآخر دائراً في حلقة حولي وحول جرو. صفرت على الجميع ورحت أقودهم حتى الأقفاص الأخرى لتحرير المحبوسين فيها.

كان الليل قد غشانا ونحن مانزال في محبسنا، غير أننا كنا نستشعر بالارتياح والحرية التي لم يمنحها لنا الحرس قبل مغادرتهم. اقتربت من جرو وسألته أن يدلني على مخبأ نفقه الذي سينقلنا حتى البرية والانعتاق النهائي من جور السجن. قادني جرو بخفة تتبعنا جموع الكلاب حتى بقعة بعيدة عند أطراف السجن، بالقرب من غرف المراقبين ومكان نومهم. كانت البقعة مغطاة بالأحراش وشجيرات العليق والتوت البري. أزاحها جرو وبدأنا بالعمل على تنظيفها وتوسيعها، ثم بدأنا بتنظيم طابور الكلاب لتخرج واحدة بعد الأخرى، دافعين بهذا ومساعدين ذاك كي ننتهي من المهمة على خير حال دون تعقيدات.

خرجت آخرهم بعد أن ساعدت الجد بسحبه معي.

في البرية المجاورة، مسرح حريتنا الأول، رأيت الكلاب تجري منطلقة لتسابق الريح، ولا تهتدي بسهولة على أي الطرق أنسب لحياتها القادمة. مجموعة منها بقيت تتبع خطواتي. سحبنا أجسادنا ومضينا إلى الأمام يسترنا الليل بعتمته. لم يفارقني جرو ولا الجد إذ مضى خلفنا متتبعاً آثارنا بقليل من الوجل والمزيد من الاحتراس كأنه يكتشف عالماً غريباً عليه المرة.



راحت الكلاب تتخبط بمسيرها، كل واحد يبحث عن دربه الخاص أو عن طريق قديم كان قد عرفه ذات يوم ولا بد أنه قد حن له. كلنا بلا شك نحنُ للمكان الأول. دون أن أخمن ما يمكن أن تكون عليه حياة الآخرين، سمعت الجميع يتحدث عن وجهته نحو أماكن مألوفة تركها منذ زمن. جماعة من ستة أو سبعة كلاب كانت تتحلق حولي، كنت أمضي في المقدمة أُساعد الجد على متابعة الطريق برفقة جرو ولم أُبد أي أعتراض في بادئ الأمر عندما علمت أن هذه الكلاب ليس لها من مكان آخر، بل لا تعرف حتى كيفية الاستمرار بحياتها الطبيعية خارج أقفاص الحبس. علمت أن البعض قد وُلِد فعلاً في أقفاص الحبس أو جيء به صغيراً، ولم يفتح عينيه سوى على منظر الأسلاك وحضور الحرس الدائم.

مضيت في طريقي وكنا نحيد عن المناطق المأهولة والطرقات العامة تحاشياً لصائدي الكلاب وتجمعات البشر. كانت جولاتنا تمر بمزارع شاسعة، نجتاز حقول الجت لنقع في حقول عباد شمس أو القمح أو أي نوع من البقوليات. هناك ما أن وجدت مسألة تغذيتي سهلة أنا المعتاد على الأعشاب والخضر منذ فترة، كان من الصعب علي إقناع الجماعة الكلبية التابعة - وقد وضعت كل ثقلها بي - بأن تجترع الأعشاب معي.

ومثل كل مرة بادر جرو بحمل هذا الثقل عني، إذ نظم الكلاب في حملات صيد بالجوار على أن لا يبتعدوا كثيراً عن محيط مسيرنا الذي يحملنا حتى جهة غير معلومة. كثيراً ما كانوا يعودون معفرين

بريش الطيور المصادة ودمائها. كنت أتشمم التراب وأرفع خطمي للهواء مستنشقاً غباره عسى ولعله يحمل لي شارة عن الطريق الأنسب الذي يمضي بي حتى محبس المعلم. كنت مصمماً على الأنتظار عند بوابة حبسه وانتهاز أقرب فرصة للتسلل ومحاولة إنقاذه. لكنني حتى تلك اللحظة لم أحدس بعد الطريق الصائب المؤدي إليه، وهذا ما زاد من شكي بقدراتي، وأيقنت أنني أصبحت مهدداً بفقدان قابليتي الكلبية الطبيعية وحزرت أن ذلك تابع ربما لتوقفي عن الصيد لفترة طويلة ومن تذوق دم الحيوانات ولحومها الطازجة.

مع ذلك كنت امضي كأعمى بلا دليل، لعل وعسى أن ينجح حدسي بإيصالي مصادفة لمكان حبس المعلم أو افتراضاً أن كل الطرق لا بد وأن تؤدي إلى مركز المدينة، وهناك سأعثر حتماً على الشارع المؤدي للمبنى الهائل الذي ألقوا فيه بالمعلم، متذكراً للآن العلامات التي بقيت عالقة ببالي من رحلة تتبعي للسيارة المضللة.

كنت اشعر بأن وضعاً غريباً يطوقنا، هواءاً غريباً، لم يكن هناك وجود للبشر. بل كنا نلمحُ من حين لآخر بهجرات معاكسة لطريقنا. توجست شراً وتحسبت أنه لا بد وقد حدث شيء عصيب دون أن أدرك ما هو؟

كنا نمضي بلا هدف. شيئاً فشيئاً بدأت أشعر بأن الكلاب الأخرى قد بدأت تعتاد على تنفس الهواء الطلق. مع تقدم الوقت كنا نفتقد لأثر واحد منها بعد أن تركنا وراح يتسلل لبيت أو مزرعة أو يقرر فجأة بأن مصيره يقوده حتى وجهة معاكسة تماماً لوجهة تقدمنا، فيتسلل مغادراً دون نباح.

في الواقع كنت مرتاحاً لقراراتهم ولم أتساءل أينْ مضوا؟ ولم أتوقف لمعرفة ذلك؟ كان هدفي أن أمضي لوحدي بحثاً عن المعلم صاحبي، وكلما كنت برفقة كلاب أخرى، فمعنى ذلك التأخير

والتمهل والدخول في مشاغل جديدة ليست من بين واجباتي الآن.

بعـد أن قطعنـا شـوطاً كبيراً من مسـيرنا، لم يبـق من المجموعة سواي والجد وجرو، وكلب آخر بسحنة لاهية وجلد مبقع أخبرني أن اسمه "هوذا" وتهجاه لي بأكثر من لغة اتقنها أو سمعها عن آخرين. فكرت يا لغرابة هذا الكلب واسـمه، لكنني لم أعر لتواجده معنا أي اهتمـام. كان مصـراً علـى تتبـع آثـاري، وفي كل مـرة كان يصحح لنا المعلومـات. كان أكثـر تعطشـاً منا للوصـول إلى مركز المدينة، ما أن أسـأله عن السـبب حتى يصمت مطرقاً برأسـه وهازاً ذيله بلا مبالاة ومتجسساً برأس نافرة يمنة ويسرة. لم أسمع منه تعليقاً على أي شيء، لكنني أسمعه يتنهد بين حين وآخر ومكلماً نفسه: "تباً له!". فكرت أنه يلعن أحداً أو يشكو مني، إلا أنني فهمت أخيراً أنه ناقم على الزمن والأوضاع التي بدأت تفلت من بين يديه. ما أن أجابهه عن أي شيء يتقوله، لم يكن يرد علي بل يلوذ إلى جهة لوحده كما لو أنه شاء أن يشاركنا الطريق لا الرفقة ولا الحوار.

ما أن طلعت شمس اليوم التالي حتى أدركنا أننا كنا نراوح في مكاننا. كنا قد وقعنا في دوامة تكرار المسافة وإعادتها دون أن نحيد كثيـراً عـن المزارع المجاورة لأقفاص حبسـنا. كنـا مثل حمير نواعير السقي، دائماً ما نعود للبقعة نفسها. حينذاك توقفت وواجهت الثلاثة معتـذراً - الحقيقـة كنـت أتكلم مع الجد وجرو فقط طالما كان هوذا منعزلاً عنا - أنني لا بد وقد أصبحت غير نافع بالمرة لمهام الدليل أو القائد ومن الأفضل أن يتخذ كل واحد منا ما يرغب ويرى.

لـم أنتظـر طويلاً حتى هاج هوذا ثائـراً ليرميني بأقذع الأوصاف والإهانـات. كان جـرو والجد أكثر تعجباً مني لتصرفات هذا الكلب الـذي تبعنـا دون أن نطلـب منـه ذلـك، ومـع هـذا كان الأكثـر غضباً لضياعنا. حاول جرو أن يؤدبه لكنني أوقفته وصرخت بوجه هوذا:

- قل لي حقيقة عما تبحث ومنْ أجبرك على تتبعنا؟

هذه المرة قال جملة واضحة ولكنها أكثر ارتباكاً من كل تصرفاته السابقة"

- فهمت أنك "ليدر" حقيقي فانقدت لخطواتك!

صمت بعدها ودردم ببضع كلمات، استدار بوجهه ثم مضى مبتعداً عنا.

كل واحد منا كان يستعجل الخروج من هذه الدائرة المهلكة لذا مضينا قدماً نحن الثلاثة دون أن نضيع دقيقة واحدة. كان الطريق مكشوفاً هذه المرة، مع بعض الأشجار المتفرقة والشجيرات والحقول الواطئة التي تبان رؤوسنا من بين سنابلها. ما ظننته لم يكن صائباً المرة، في طريق مواز لطريقنا وعلى بعد ليس أقل من ثلاثمائة متر، كان هوذا يمضي بنفس اتجاهنا، كأنه أراد الاسترشاد بنا دون أن يرافقنا الدرب نفسه. لم يغب عن أعيننا ولم نغب عن عينيه. كان جرو في كل مرة يركض تجاهه لمعرفة سبب تعقبه لنا بعد أن أعلن غضبه وأنفصاله عنا، لم يحظ به إطلاقاً لأنه كان يهرب بعيداً، ليعاود طريقه من جديد بعد أن يرى جرو عائد إلى جمعنا.

انشغلنا بلعبة هوذا، غير أنني منعت جرو من ملاحقته. كنا متعبين نمضي بلا أمل بحيث أنني لم أفطن للإجهاد الذي نال من الجد. كان قد تنحى جانباً واختار حقلاً منفرداً ومضى ليستلقي عند خُص مهجور بلا أية كلمة ولا توضيح. اقتربت منه مستفسراً فلمحت الإجابة جاهزة في عينيه. لمحت كلماته تطفر معلنة عن نفسها دون داع للنطق بها. فهمت كل رسالته، مع ذلك أردت الاطمئنان فاعتذرت منه مضيفاً:

- ربما كنا نمضي بسرعة دون أن نبالي بقواك الجسدية.. من الآن ولاحقاً أنت الذي تقرر!

استرد الجد أنفاسه وقال لي:

- ليس هذا هو الموضوع يا ولدي، أنتم تمضون بسرعة لأن لكم هدفاً ومكاناً تنشدون الوصول له، أما أنا فلم يعد لي مكان ولا متسع من الوقت ولا أي هدف. أريد وحسب أن أستريح وهذا هو المكان المناسب على ما أعتقد. لا تقلقا، امضيا بطريقكما، سأنتظر ما يتبقى لي ها هنا، لا بد أنه مكان مناسب لبقائي. يا ليدر لقد أكرمتني أنت وجرو بدلالكما.. يكفي هذا.. سأكون بخير، مكان ظليل ووفرة من الأطعمة.. أمضي يا ليدر بطريقك..هيا.. لا بد أن تصل لمرادك.. أرجو أن تحصل على ما تصبوا له.. هيا.

وطردنا بهزة من رأسه دون أن نستطيع الرفض، فمضينا.

الساعات التالية قبل قدوم الليل، كنت متوجساً من أن نكون قد أضعنا الطريق. لم أرّ ما يدل على معالم بغداد التي أعرفها. فكرت أن الصيادين لا بد وقد نقلونا إلى مدينة أخرى، لهذا يتطلب طريقنا إلى بغداد ساعات طويلة وجري متواصل.

فجراً بدأت أتمعن ما يذكرني بالمدينة التي أعرف، بغداد. ضياء القمر بدأ يرسم لي ظلالاً متلألئة تدلني على ما أضعت منذ أيام عديدة. أخيراً صحت ونبحت عالياً "لقد وصلنا يا جرو!"، فما كان من جرو المجهد المسلوخ إلا أن نبح بكل قوته مجارياً نداءاتي. كان نباحه يتضاعف بشكل غريب لنكتشف أن هوذا كان يردد نباحه وكأنه صدى له. لقد أدرك هوذا أيضاً أنه قد نجح بالوصول لأنه قد آمن بأن يتبع خطانا - أو هي وسيلته الوحيدة - فعلى ما يبدو أنه لم يكن يعرف الوصول لبغداد أولم يرها قبل اليوم.

كان ما يزال أمامنا طريق أطول لاجتياز المزارع المحيطة بالمدينة والجري مطولاً ولساعات قبل أن نرى أنفسنا في مركز العاصمة. توقفت وأخبرت جرو بنيتي الاستراحة والنوم قبل التفكير بشكل

سليم عن طريقة معاودة السير. كان كل ما يهمني أن أغفو قليلاً حتى أستطيع استذكار العلامات الدالة التي تقودني لمحبس المعلم، وهي المهمة الوحيدة التي تشغلني منذ خروجنا من الحبس. تركت لجرو الحرية الكاملة أن يرافقني أو أن يمضي بوجهته المنشودة. رأيت فيه ملامح من يرغب بإخباري بأنه لن يتركني بسهولة وبالوقت نفسه شيء ما يدفع به إلى أن لا ينتظر أكثر. بين هذه الرغبة وتلك دون أن يفصح كلياً عن مشاعره، اقترب مني بخفته المعهودة وانحنى حتى رأسي وطبع قبلة على جبهتي قائلاً: "لن أنساك.. كنت بمثابة أخ لي، لكنني لا بد أن أمضي بطريقي، أنا على موعد قد طال انتظاري له!".

- ما الذي تخبأه رأسك الصغيرة يا جرو؟

- أشياء عديدة يا ليدر، أرجو أن يتاح لي الوقت يوماً ما لأقصها عليك.. أما الآن فعلي أن أمضي.

بقي هوذا يلوب لوقت بدا لي طويلاً وهو يدور في مكانه ليس ببعيد من مكان استراحتي في مزرعة نائية عن الطريق العام، حتى قرر أخيراً أن يختفي ولمحته يمضي بنفس الطريق التي حملت جرو وكأنه أراد أن يعلمني بنيته قبل رحيله.

غفوت حالاً أو هذا ما أحسسته، شعرت بثقل كل أيام الحبس تجثم على جسدي وتحيله إلى ركام لا نفع فيه الآن سوى للنوم والخدر في متاهة لا تفسير لها أبداً. لم أعرف كيف مضت الساعات الليلية في إغفاءتي، إذ على الرغم من عمق نيمتي إلا أن الكوابيس قد هدت راحتي. حلمت بأنني ما زلت في حبسي المنيع وكلما حاولت الهرب أُصاد من جديد وتزداد الحراسة من حولي. في لحظة أخيرة من الحلم كنت قد حصلت على عبوة متفجرات ناسفة وقررت أن أنسف الحبس ومنْ فيه إن لم أستطع الخلاص من السجن وقسوة الجلادين، تسللت بينهم بمهارة وأريتهم العبوة صارخاً بهم: "لتمضوا

إلى الجحيم!". فجرتها فطرت عالياً متمعناً باجسادهم المتناثرة لأقع بصخب مرتطماً على الأرض المتفتتة... "بووووووووووم"...

فـزت متعرقـاً ومرتجفاً. ما أن تنفســت مسـترجعاً رشـدي وقد علمـت بأنـه لم يكن سـوى كابوس لعيـن يطاردني، حتى لمحت عن بعد ما يشبه كرة نارية تصعد من الأسفل حتى الأعلى ليست ببعيد عن سـماء بغـداد وعنـا لتجيء بما يذكرني بهديـر الكابوس اللعين ذاك... "بووووووووووم" أكثر صخباً.

هذه المرة كان شيئاً حقيقياً ولم يكن حلماً بالمرة.

راقبت سماء بغداد تضاء بمئات الأنوار التي ما أن تنطفئ حتى تليهـا قرقعـة ودوي لا مثيـل لـه يـدك الأرض دكاً ويهزنـا كدمـى من خيـوط لا حيلـة لنـا كـي نتجنبهـا... ألمـح النيران عن بعـد تأكل كل شـيء وتقتـرب منـي بأسـرع مما أتوقع... كـرات النيـران تتوقد عالياً لتأكل السماء والأرض معاً.



سياحة في المدينة الخراب وكيف صفيت حساباتي مع المسمى قائد أيضاً

ساعتان قبل انقشاع الصبح، هدأ القصف ودوي المدافع المرعب.

كنت قابعاً طوال الوقت في حفرة ملجأي في تلك المزرعة التي سأكتشف فيما بعد أنها محاذية تماماً لمدرج المطار الدولي. نهضت من رقاد خوفي، نفضتُ عني الغبار والتراب الذي انهال عليّ وعلى كل ما يحيطني من أشجار وشتلات. جربت أن أحرك قدمي وأمضي إلى الأمام مفكراً أنها فرصتي الآن للوصول حتى مركز المدينة قبل أن تعاود الاصوات المهلكة زئيرها من جديد.

لم أرَ في تقدمي إلا شبح مدينة.. مدينة خراب وكأنها لم يسكنها أحد قبل الآن.

لم أتعرف على بغداد تلك التي درنا في أحيائها طويلاً، مشياً على الأقدام أو في سيارة المعلم. كل شيء انزاح عن مكانه وكأن في غفلة عن الجميع قد جيء بجراف كبير ليحيل البيوت والبنايات والمتنزهات وإسفلت الشوارع كلها إلى ركام. حطام حجري متناثر، لا يخلو منه شبر من الأرض. كان من الصعب عليّ الاستدلال على الأماكن التي تركت منذ فترة، بل الأصعب الآن الاستدلال على العلامات التي تقودني لبناية حبس المعلم.

كنت وأنا أمر من بين الأنقاض، أتقابل وجثث متناثرة لبشر فقدوا أذرعاً أو رؤوساً أو لم تعد لهم معالم تعرف بهم، ظننتها بادئ الأمر ستكون قليلة، ولكنني ما أن أتقدم متراً آخر حتى أتعثر

بجثة جديدة. كانوا بالعشرات، سرعان ما رأيتهم بالمئات حتى لم أعد أحصي الجثث واقنعت نفسي بأنني لا بد وأن أسير فوق مقبرة منبوشة حديثاً. لكنها لم تكن بمقبرة قديمة، بل مقبرة شيدها قصف ودوي الليلة الماضية... أكثر من الجثث، لمحت أسلحة من أصناف مختلفة، رشاشات ومسدسات ومدافع... ليس ببعيد عن كل بناية كانت الدبابات والعجلات العسكرية تسرع لتحتل موقعاً أو لتمضي باتجاه المركز.

على العكس من خراب البيوت والشوارع والحدائق والجسور، تصادفت وجموع بشرية تهلل بالآلاف. موسيقى وركض ورقص في الشوارع وامام الدور وفوق السطوح والساحات العامة. الجميع في فرح، يصرخون ويحملون لافتات وأعلام ملونة وصوراً لأشخاص لم أتعرف عليهم أو لم أرهم سابقاً، وطرق سمعي هتافات لم أكن أتصور أنني سأسمعها ذات يوم، تندد بالظلم وسقوط الطاغية.

مررت في شوارع لم يحفل فيها الناس بوجودي، كان الكل منشغل بمسألة معينة، مسألة خاصة به عثر عليها التو. رحت - دون وعي مني - خلف مجموعة من شيوخ وفتية وأطفال ونساء كذلك وقد مضوا في عملية إزالة صور ذلك "المسمى قائد أيضاً". كنت كمنْ خبأ هذه اللحظة في داخله لتطفر معلنة عن نيتها الصريحة الصادقة في أول مناسبة. تذكرت تلك الأشهر الماضية التي رغبت فيها أن أمزق صور ذلك "المسمى قائد أيضاً" وقد منعني أهلي ومعلمي خوفاً من عيونه وحرسه. الآن أرى الجميع يمزق ويبصق على الصور، يحطم تماثيله المنتصبة حتى قبل يوم في أماكنها والتي لم يجرؤ أي واحد منا لمجرد النظر والتمعن بها.

مضيت بكل فرح ونشوة نابحاً بملء فمي، ماداً لساني مزمجراً وعاضاً على الصور الممزقة، راكضاً مع طفل يحمل حذاءاً وراح

يكيل اللطمات لرأس حجري لذلك المسمى قائد أيضاً، فمضيت أقلده صاعداً على الرأس الحجري لأفرغ مثانتي الممتلئة عليه. تلك اللحظة التي لن أنساها، شعرت بكل حزني وتعاستي تنزاح مع الجموع الهادرة، وأحسست بأنني أسعد كلب في العالم!

هلل الجميع ورفعني أحد الشبان عالياً فوق الرؤوس لأستمع لمديح الناس وتصفيقهم. كنت مسروراً وجذلاً أخبئ في مستودع الذاكرة هذه اللحظات لأقصها فيما بعد على المعلم، معلمي، والذي أتذكره وكأنه معي يشهد كل ذلك بنفسه، كم كان بشوق وهو ينتظر خبراً كهذا وفرصة لن ينسى تفويتها.. ولكن أين هو الآن، في أي سجن وأي وكر رموه؟

كنت أقوم بدوري ودور المعلم، ولم أشعر بلحظة مع هذه الجموع الصاخبة الفرحة بأنه غائب عنا.

بعد ساعة أو أكثر وأنا في فورة تدافعي وركضي مع الحشود قد وجدت نفسي أقترب شيئاً فشيئاً من مركز العاصمة. وفي لحظات بدت لي أنني قد لمحت ما ذكرني بعلامات تركتها دليلاً من الممكن أن تحملني حتى سجن المعلم. إشارات ومتنزهات وجادات ما أن أنعطف فيها حتى أعثر على غيرها وغيرها وكلها تقودني دون خطأ حتى المبنى المسيج ذاك الذي حملوا له معلمي مدمى وفاقداً لوعيه.

عندما أصبحت في مواجهة المبنى الضخم هالني ما رأيت.

لم يسلم المبنى من التهديم الذي طال أغلب البنايات والبيوت المجاورة. هذه المرة لم يكن هناك دوريات ولا أثر لحرس، كما أن السياج الشائك قد سقط كلياً وأحترقت الأشجار المحيطة به وبان داخل المبنى بشكل واضح كفم أدرد مفتوح على وسعه. اجتزت العتبة الأولى، راكضاً متشمماً في الركام ما يساعدني بالعثور على أي أثر للمعلم. مررت فوق جثث متساقطة لا حياة فيها، وكنت أقف

مطولاً أمام كل جثة متمعناً في الوجوه ثم أمضي إلى الأمام. خشيتي الكبرى أن أرى المعلم ممدداً بينها. لم أعثر على المعلم أو ما يدلني عليه.

درت البناية كلها صعوداً ونزولاً، متجولاً في مغاراتها السرية وفي أقسامها ومحابسها المشرعة الأبواب. كانت الجثث بالعشرات، أجساد بملابس حربية وأخرى ببيجامات النوم، بعضها عارية لم يتسن لها ارتداء ملابسها فبقيت هامدة على الأرض أو في أسرتها. نبحت طويلاً منادياً على المعلم، ولم أستمع لإجابة. يأست وخشيت أنني لن أعثر على المعلم في هذا الدمار وبين الجثث المتفحمة.

لم يبق أمامي سوى المضي من شارع لآخر بحثاً عن صاحبي المعلم، فقد أملت أن أعثر عليه قائداً لمسيرة بشرية. في طريقي تلاقيت ببشر هائج، راقبت كيف يمضي الناس من بناية لأخرى بحثاً عن كنوز أو آثاث أو معدات ما أو أي شيء صالح يحملونه معهم. راقبت بعضهم يتقاتل مع بعض والبعض يسرق البعض. لمحت الجثث مرمية فوق الأرصفة. لمحت مسلحين يمضون من دار إلى أخرى وكيف يفتحون نيران أسلحتهم دون أن يتعبوا أنفسهم بمحاسبة أفعالهم. لمحت عصابات كلاب تتبعهم وأخرى تنفرد باحتلال بيوت مهجورة ومزارع لم يعد لها أصحاب أو أنهم قد قتلوا أو فروا في موجة الهرج والفوضى. حاول البعض أن يجرجرني معه في لعبته، لكنني كنت أجتازهم بخفة ماضياً في طريقي. لم يكن لي نية الحصول على شيء ولا سرقة ما ليس لي. كنت مهموماً بأن يتركونني وحالي لأبحث عن وسيلة ما أو طريق ممكن يقودني إلى حيث يمكنني العثور على المعلم.

مضى اليوم سريعاً ودثرنا الليل بعباءته. كنت ما أزال أبحث هنا وهناك وخشيت للحظة أن يعاودوا القصف والتدمير. رأيت أن

أمضي حتى أقرب حديقة أو بستان لأختبئ حتى تنتهي ليلة القصف القادمة. وجدتني في مزرعة قرب دجلة فقبعت عندها وبين أشجارها كغطاء يحميني.

آنذاك وحسب - ما أن بدأت أستمع لهدير الطائرات ورمي المدافع - حتى خطر على بالي أن ألجأ لبيتنا القريب من النهر، بيت المعلم الذي لم يكن بعيداً عن مكان اختبائي. فكرت أن أقترب بحذر لأرى أن كان أولئك الغرباء ما زالوا يحتلونه أم تركوه ورحلوا مثل الأغلبية. عندما وصلت من طرف المزرعة الآخر، نفس ذلك الطرف الذي وجدت نفسي برفقة المعلم تطوقنا النيران. لمحت عن بعد بيت المعلم قائماً لم يطله الدمار بعد. كان ما يزال يعلو البيت يافطة كبيرة كنت قد رأيت أصحاب الرجل المهم يعلقونها على واجهة البيت بعد أن طردونا منه. ما لمحته وحسب أشباح عجلات ودبابات على امتداد الشارع والمحلات المجاورة.

بقيت قابعاً هناك مترقباً لأي حركة تبدر من محتلي الدار، لكنني لم أر ما يدل على تواجدهم. كان البيت هادئاً ولا أثر لبشر فيه. الشيء الوحيد الذي عكر صفو المزرعة والنهر والبيت هو القصف الذي بدأ يتسارع ويعلو ليصم الآذان. تلفعت بما عثرت عليه من اعشاب وأوراق ساقطة بالقرب من جذع شجرة منخور ورحت أنتظر ما يجيء به الصباح.

لا بد أنني قد غفوت أو رحت في تفكير عميق أغلق نباهتي وقدرتي على التحسس، لأنني لم أشعر إلا وحركة أقدام تقترب من مخبأي لأستمع لصوت كنت قد ظننت أنني لن أعود لسماعه ما حيت.

"صاحبي ليدر، يا لفرحتي، أنت بخير!".

فتفاجأت بوجه المعلم باشاً منطلقاً يفتح لي ذراعيه ليحتضنني.

لقائي بالمعلم مجدداً
وما حدثني به عن أيامه المريرة

كلانـا فـي تلـك الأيام قد تغير، هو من ضيم السـجن والتعذيب وأنا من عذاب السجن الطويل والبعد.

مع ذلك لم نحتج سـوى لوقت قصير كي نعاود علاقتنا وكأننا لم نفترق غير البارحة. لم نحتج لكلمات إطلاقاً ولم ابد نباحاً يذكر، بل جلسنا الواحد قبالة الآخر أو جوار الآخر ورحنا نستمتع بالصحبة مجدداً. لم اسأله ولم يسألني لأننا كنا موقنين أنه لا مجال لاستيعاب ما حصل لنا بظرف أشهر قليلة.

بعـد ليلتيـن وكنـا لم نخرج من البيت، ملتجأين لمخزن المؤونة فـي الطابـق الأرضـي، خبز وشـاي وخضروات وفاكهة مما أستطعنا شـراؤه مـن الـدكان القريـب من البيت وما تم حفظـه في المطبخ في مناسبات مختلفة. شمعتان وكتاب ونجلس مترقبين ما تجيء به أنباء العالـم الخارجـي. لقـد عشـنا تجربـة عذاب وتهجيـر وحبس قبل أن يحـدث مـا يحـدث للبلاد، وأيام لقائنا الأولى كنا متلهفين للرفقة قبل أي شيء آخر مما يحصل حولنا وبالقرب منا.

جلـس المعلـم علـى الكرسـي وكنت بجواره، فحكـى لي دفعة واحدة ما حصل له دون أن ينتظر مني تعليقاً أو توضيحاً:

"أشد ما آلمني يا ليدر، في أيام حبسي تلك، أنني كنت مشدود العينيـن ليـل نهـار، حتى أيقنت أن معذبي قد قرروا أن ينقلوني لعالم الظلمـات. لـم أحتـج إطلاقاً على كل ما بـدر منهم، بل على العكس وقد أدركت أن موتي قريب لا محالة، وافقتهم على كل ما نسبوه لي

من تُهم، بل أكثر، اعترفت لهم بأنني لن أكل عن العداء لهم والعمل ضدهم.. لم أكن يائساً يا صاحبي، بل في لحظة اكتشفت شجاعة المواجهة ولو لمرة واحدة في الحياة بعد سنين من طمس الرأس في التراب مثل النعامة. لم أدرك لحظة الشجاعة إلا وأنا في قمة لحظات التعذيب. تلك الأيام المريرة تذكرتكم فيها كلكم، أحبتي، الراحلون منكم والأحياء: زوجتي واولادي المهجرون، عائلتي التي ماتت كمداً.. كلكم مررتم في مخيلتي وأنا أرجو كل لحظة أن أسارع بلقائكم. بدل أن أرضخ لقسوتهم وتهديدهم، أخبرتهم بكل ما عملت وما لم يتح لي الوقت بعمله وما أنوي عمله أن خرجت واطلقوا سراحي يوماً ما.

مررت بكل صنوف التعذيب حتى فقدت الأحساس بجسدي... لم أعد أشعر به ملكي. الشيء الوحيد الذي بقي عالقاً في داخلي كل ذكرياتي الجميلة وناسي الرائعين، إذ أن كل صنوف إذلالهم لي وقمعهم، لم يقتلها في داخلي. الحزن الوحيد الذي تمكن مني أنني كنت موقناً بموتي السريع قبل أن أشهد نهاية الظلم.. مرات كنت احلم بأنك قريب مني يا ليدر، لم تتركني في قبوي، كنت اشعر بك قريباً مني، وفي كل مرة وأنا اسقط في غياهب الجب كنت تنقذني ونعود انا وأنت لنتسامر ونتجول بحرية في حديقة منزلنا أو عند ضفاف دجلة بلا أي رقيب ولا قيد.

بعد أيام طويلة، مقيداً ومرمياً على الأرض بعينين معصوبتين، جاء أحدهم ليقودني حتى غرفة أخرى ولم يكل من ضربي طوال الطريق المؤدي من جحري حتى غرفة التحقيق. رماني هناك بعد أن شتمني وركلني بكل قسوة. بعد وقت دخل أحدهم ورفعني عن الأرض وأجلسني على كرسي، ثم جاء آخر وأطلق يدي ثم رفع العصابة عن عيني. بقيت لوقت أعمى لا أميز أشياء الغرفة ولا أي فرد

فيها. كنت أستمع لكلمات رجل يحدثني عن الخيانة والجبن والعمالة للأجنبي، ثم يضع أمامي أوراق ليطلب مني توقيعها. رد فعلي الوحيد كان أن أجيبه: "وما فائدة كل هذا؟". ما أن قلت ذلك حتى انهال عليّ أحدهم من الخلف بالضرب والركل لأجد نفسي مرمياً على الأرض. يعود ليحملني من جديد ويلقيني على الكرسي.. مدمى، منهكاً وبلا وعي تقريباً، سمعت الرجل من خلف المنضدة يسألني: "ماذا قلت؟".

تحاملت على نفسي وبيدين مشلولتين رفعت القلم ووقعت دون أن اعرف تماماً ماذا تحوي تلك الأوراق. كنت قد خمنت سلفاً أنها أوراق إدانتي.

أمر الرجل المتكلم مساعده الجلاد بأن يرجعني إلى زنزانتي، فقادني بشراسة، خاطاً بقدمي على الأرض، لم يكن لي قدرة على المشي. في الممر مضعضعاً وبعينين بدأتا بالتعود على الضوء تصادفت هناك بما لا يمكنني تصوره يوماً ما. قبل أن أدرك حجم مصيبتي تلك، سمعت لغواً وتهديداً ووعيداً من ذلك الذي التقيناه في الممر، ليقوم منْ رافقني بتعصيب عيني من جديد والعودة للضرب والسحل حتى الزنزانة.

لقد رأيت يا ليدر ما لم أتصوره أبداً.. لكن العيش في بلدنا هذا ومنْ يعرف بأموره لن يستغرب أي شيء إطلاقاً. ذلك الرجل الذي صادفته بينهم لم يكن غير صديقي الذي أعارنا بيته، هل تذكره يا ليدر، كان واحداً منهم أكثر عداوة وشدة وهو الذي خانني وحملني لعذاب الحبس وموته البطيء.. هل تتصور ما حدث لي يا صاحبي.. آنذاك فقدت كل اهتمام بالحياة وبصقت على الدنيا التي تحشرنا مع القساة والخونة في خانة واحدة.. آنذاك كنت مستعداً للخلاص مما تبقى لي من نفس، ما أن يمر الوقت حتى أكون أكثر توافقاً مع

روحـي، كنـت أكثـر اسـتعداداً من أي وقـت آخر لاسـتقبال نهايتي.. وهو ما انتظرته كل تلك الأيام.

بالطبـع لـم يحـدث أن جـاء ذلـك اليـوم. حظنـا أن يحصـل ما حصل، لولا القصف ونهاية "ذلك المسـمى قائد أيضاً" وأنصاره لما رأيتني الآن أمامك.. كانوا في أيام قبل ذلك، قد شنوا حملة للتخلص منا وبسرعة، قتلوا منْ قتلوا ورموا بجثثهم في أماكن متفرقة.. وكنت أترقـب يومـي الـذي تأخـر بيـوم واحـد أو يومين، مصادفـة لا غير.. أنقذتنـي المدافـع والقصف يـا ليدر، الدمار الذي حل بالمكان هو ما أخرجني للنور.. لقد سمعت وشهدت كل شيء في سرداب حبسي. لـم أعـرف بمـا كان يجـري في الخارج حتى اقتحم البناية بشـر هائج وحطم سجوننا ليخرجوننا واحداً واحداً من مطمورتنا، فوجدتني بين ليلـة وضحاهـا طليقاً حـراً. أنهضوني وعانقوني وأخبروني بما جرى، ثـم سـاعدوني بالخـروج والوصول إلى هنا.. لـم أعرف ما كان علي فعله، ولم أتذكر مكاناً آخر غير بيتنا هذا، فلم أكن متأكداً من مكانك وإن كنـت مـا تـزال حياً أم ميتاً.. جلسـت أنتظرك هنـا، وكل ما رأيته بعـد لقائنـا مـا زلت أشـعر به وكأنني في حلـم.. حلم ما زلت أرغب بالعيش فيه إلى ما لانهاية".

صمـت بعدهـا المعلـم ولم انبح بأية عبارة.. تمعنت به ووجدته يركز بنظره كعادته في نقطة بعيدة لا يمكن إدراكها.



كيف انقلبت الدنيا على رأسينا، وما جرى لنا مع الغوغاء

لم نكن باطلاع على أخبار العالم والبلاد. ما كنا نسمعه طوال ليال وأيام عديدة لم يكن سوى دوي وهدير المدافع والطائرات. كنا في مخبئنا، في دار المعلم المستعادة، دون أن ندرك ما يحصل في الخارج. كنا نفتقد للتيار الكهربائي مثل جميع الناس بعد أن تدمر كل شيء. لم نشاهد التلفزيون ولا نستمع للراديو ولا مجال للحصول على صحيفة واحدة. كنا منقطعين تماماً عن العالم إلا بما يصل أسماعنا من قصف وتفجيرات قريبة وحركة البشر الهائج في الشوارع والحدائق المجاورة. أحياناً كنا نخرج حتى الحديقة لمراقبة مَنْ يأتي ومَنْ يمضي من جهة النهر. رأيت المعلم يوقف بعضهم ويتساءل عما يجري. كانت أغلب الإجابات تكرر ما عرفناه سابقاً ولا تشفي غليلنا ولا تقدم أو تؤخر ما شهدناه بأنفسنا.

أكثر الأمور سعادة هو عثور المعلم على دفاتر مذكراته في مخبأها الذي تركه فيها دون أن تصل أيدي العيون ولا المحتلين وغيرهم لها. كان سعيداً وهو يورقها ويمضي الساعات الطوال بملء أوراقها الفارغة بما استجدت عليه أيامه وما مر به في الحبس وما مر بنا في أيام حريتنا المستعادة.. كان يدون طوال النهار وعلى ضوء شمعة في الليالي، كنت أجلس بالقرب منه محاولاً فك ما يسطره كي أتعايش مع لحظات حياته التي لم أشهدها ولم أكن فيها بقربه.

ما كان يخشاه المعلم - وكرره دائماً - قَدِم وبأسرع مما توقعه. كأن أيامنا السعيدة قد خلقها الرب أقصر بكثير من تلك المحزنة والتعيسة.

كان المعلم يقرأ على أسماعي مقاطع من كتاب (فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب) لعلامة اسـمه محمد بن خلف المرزبان عاش قبل قرون في عصر سمي بالعصر العباسي. كنا في الصالة نتمتع بنور الصباح وهدوء غريب لم نشهده منذ أيام - لا قصف ولا دوي ولا هـرج مـرج - واتذكـر أن المعلـم قد انتهى من ذكر حكمة لرجل اسمه الأحنف بن قيس تقول: "إذا بَصبصَ الكلب لك فثق ببصبصته ولا تثق ببصابص الناس، فرُبَ مُبصبص خّوان"، حتى سـمعنا هديراً بشرياً وصياحاً يقترب من بوابة بيتنا الخارجية. في ظرف دقائق صرعنا الصراخ، ولم نعد نعرف من أي جهة يقدمْ.

اجتاحتنا الجموع المتنافرة من كل الجهات. دخل منْ دخل من البوابـة، وجـاء آخـرون مـن المـزارع المجاورة. بل هبـط بعضهم من السـطح وهجـم علينا من الطابـق العلوي دون أن يمهلوننا الاحتجاج أو التسـاؤل عما يفعلونه وما أسـبابه. لم يكن الجمع متجانسـاً، كانوا كثـرة مـن رجـال مسـلحين بالعصـي والسـكاكين والخناجـر، وحمل البعـض منهم مسدسـات ورشاشـات مختلفة الأحجـام، كان برفقتهم نسـاءً وأطفالاً وبالخلف منهم كلاباً مسـعورة تنبح وتكشـر عن أنيابها مستعدة للنهش والتقطيع لأقل إشارة من أصحابها.

ما أن لمحت المعلم يقدم مسرعاً لالتقاط عصاه المرمية بقربه، حتـى تقدمتـه شـاهراً كل أسـلحتي لمواجهة المعتديـن. لكننا كنا أقل بكثير منهم، فمن يسـتطيع فعله اثنان بمواجهة حشـد كامل؟ مع ذلك لـم يكـن لدينـا الوقـت بالتفكيـر العميـق كما أنهـم لم يمهلونـا وقتاً، فقـد هجـم الجمـع علـى المعلم وطرحوه أرضاً ولـم تنفع محاولاتي بالدفـاع عنـه، لم ينفع عضي ولا هجماتـي للمعتدين بتخليصه منهم. رموه بقسـوة على الأرض، وكل منْ يمر به يركله ويجرحه بسـلاحه، كما نالني من ضربهم وتخميشهم بقدر ما نال المعلم وأكثر. لحظات

وهاجمتني كلابهم وتناوبت على تقطيع جلدي. نهشت لحم بطني ورقبتي وتركتني خامداً لا حول ولا قوة لي، منقعاً بدمي وعرقي بالقرب من المعلم الذي كان يتنفس بصعوبة ويراقب بعينين متساءلتين وحزينتين عما كانوا يفعلونه بنا وببيته.

مطروحاً قرب معلمي وقد نالت مني الكلاب، لمحت الحشد يتناهب أغراض البيت وآثاثه، كل شيء ثمين فيه وما لا قيمة له. رأيت الرجال يأمرون ونسائهم وأطفالهم يطيعون ويحملون بين أيديهم وعلى رؤوسهم كل ما طالته أيديهم حتى لم يبقوا على شيء في كل غرف الدار، جردوا الدار حتى من الستائر التي تغطي النوافذ. تحاملت على نفسي ورفعت جذعي لأقوم ولو بالزمجرة وتخويف البعض منهم، إلا أنهم كانوا يسحقونني برواحهم ومجيئهم، وعادت الكلاب المسعورة بالقبض على رقبتي ومحاولة قطع أنفاسي لأراني من جديد ممدداً بلا حراك في زاوية من زوايا البيت. اعتقدت أنهم قد نالوا مني هذه المرة إذ بدأ جسدي يخدر وأعضائي تفتر وعيناي أوشكتا على الانغلاق.

خرج أغلبهم محملين بالأمتعة وسرقوا كل شيء تافه في البيت حتى إنني لمحت من بينهم منْ كان يتصارع مع آخرين من أجل شيء لا قيمة له، وشهدت كيف يقتل أحدهم الآخر طمعاً بقطعة آثاث أو كرسي عتيق. لم يتركوا شيئاً أمامهم، إذ نهب الأطفال أخيراً الفواكه العالقة بأغصانها. أشد ما آلمني أن أرى المعلم يلفظ أنفاسه كخرقة بالية ولا أقوى على مساعدته. قبل أن يختفي الجميع ويتركونا لوحدنا في وسط الصالة، هبط من الطابق العلوي أحد الرجال المسلحين يحمل حقيبة المعلم المليئة بأغراضه الشخصية، جرى بسرعة حتى مخرج الدار يتبعه كلب بدا لي أنني قد التقيته يوماً ما، نبحت بما تبقى لي من نَفَس مسلطاً نظراتي له لا غير: "هذا أنت يا هوذا!؟"، ثم

راقبته خلف صاحبه يجر كيساً من القماش، عرفت بها عليقة المعلم التي تضم دفاتره ومذكراته المخبأة في أماكن سرية لا يعلم بها إلا المعلم وأنا. كان يسحلها سحلاً لثقلها، يخط بها الأرض ويعلق بها تراب الطريق دون أن يبالي بذلك قبل أن يختفي عن نظري منحدراً باتجاه أدغال النهر.

ما ظننته قد انتهى لم ينته كلياً.

في لحظات لمحنا رجلاً يقترب منا، خرج من المطبخ أو من مكتب المعلم، لم أعد أتذكر. كان يحمل مسدساً في يده ويرتدي غترة بيضاء لفها على وجهه بحيث لا يُرى منه غير عينيه المتوعدتين. وقف عند رأس المعلم، سحب أقسام المسدس ووجهه إلى جبهة المعلم وسمعت جملته تلك بنفس وقت خروج الإطلاقة "لقد نلت منك!" قالها واردى المعلم قتيلاً في مكان رقدته الأول دون أن يتحرك شبراً واحداً.

طفرت من مكاني وكأن مساً قد صعقني وقفزت على الرجل الذي لم أطل منه غير يده الممدودة التي أودت بحياة معلمي، عضضتها بكل شراسة، بقوة مخزونة جاءتني من قهر وحزن ضعفي الذي لم ينفع هذه المرة بالدفاع عن صاحبي.

شاهدت الرجل يتقهقر ويسقط أرضاً وانا أحط فوقه ناهشاً وجهه وعاضاً على رقبته، كنت في حمى الإطاحة بقاتل صاحبي المعلم فلم أشعر إلا بآخر يأتي من الخلف، يسحب أقسام بندقيته ويفتح النار، رماني فجاءت الطلقات كالمطر فوقي وفوق قاتل المعلم تحتي.

تخدر جسدي وأحسست بحرارة الدم تشيعني قبل أن أرتمي ممدداً بين جثة معلمي وجثة قاتله.

لحظات وبدأت أحس بالدنيا تظلم وبعيني يغشاهما النمل لأنحدر في نيمة لا قرار لها.

كيف عدت من الموت
ورحلة الفراق الأبدي

"ليس لي غير وحدتي
الدار - الخراب
وهذا النباح الجريح
نباح..
نباح..
نباح..".

أتذكر أنني في تلك الليالي التي تلت مقتل المعلم، لا يتردد على بالي غير هذه الأبيات الشعرية، فأروح في موجة نباح صارخة تمزقني بلا رحمة، لا حِل لي منها ولا خيار لي فيها. كنت حزيناً خرباً من الداخل، لا شيء يملأني، لا شيء يزكي لي هذه الحياة كي أعيشها بأمل تغيير ما. الكل مضى.. كل أحبتي مضوا، ولم أعد قادراً على استيعاب كل هذه القسوة والخراب والشر الذي يملأ نفوس العالم.

لم أشعر بحالي إلا بعد ساعات طوال. كنت قد أسلمت للموت ما أن رأيت المعلم مطروحاً مثقب الجسد بلا رحمة.

رأيت الآخر يمطرني بالنار أنا أيضاً، فوقعت مغشياً عليّ وظننت أنني قد رحلت أنا الآخر إلى العالم المجهول، متمعناً طريقي خلف معلمي وصاحبي الذي لا طاقة لي على فراقه.

مرّ وقت طويل قبل أن أشعر بجسدي يهتز هزاً عنيفاً، حاولت فتح عيني لأرى ما يحصل لي، وتساءلت مع نفسي ترى هل هي هزات مطبات الممر الأخير لرحلة الموت أم ماذا؟

لم أرَ ما يشعرني بوضع جديد. كنت محمولاً في قلاب شاحنة كبيرة برفقة جثث عديدة. كنت الكلب الوحيد المطروح في زاوية مع عشرات الجثث الممزقة، جثثاً كانت قبل سويعات تنعم بالحياة وتتأمل وتحب وتخطط وتحلم، أما الآن فليس لها غير استقبال المقدر من رحلة الفراق حتى عالم لا أحد له عِلم به.

حركت جسدي ورأيت أن بمقدوري القيام ولو بصعوبة بالغة. كنت مصبوغاً بالأحمر، بدمائي ودماء الجثث المجاورة لي، ما أن أردت تدوير الرأس لمعرفة أين تمضي بي الشاحنة حتى شعرت بألم الإصابة. طلقتان اخترقتا فخذي الأيسر، وواحدة جرحت أذني وخطت رأسي خطاً وبات مفتوحاً لضربات الشمس وأزيز الذباب. تحاملت على نفسي ورحت أقلب الأجساد المتناثرة واحدة فوق الأخرى في الشاحنة بحثاً عن المعلم، بعد قليل بان قميصه الأزرق تحت جسدين آخرين. تقربت منه وأزحت الجسدين قليلاً لأتقابل بوجه معلمي الهادىء، وجهه السمح حتى وهو بلا رمق. راقبت وجهه مطمئناً يمرر ميتته بلا عتاب ولا تساؤل وكأنه أراد أن يخبرني بأن كل ما حلمنا به لا بد أن وصوله سيطول ولا بد لنا من حياة تالية كي نشهده يتحقق.

أرحت رأسي قرب رأسه ورحت في إغفاءة وكأنني بها أجمع مصيرينا معاً.

كانت الشاحنة قد غاصت في ظلمة طريق دامس. لم أعد ألمح من الطريق إلا ما تفضحه أنوار مصابيح شاحنتنا أو ما يلاقينا من عجلات قادمة وأخرى غادية. كنت أحسب بكل ما مر بي وكيف أنني قد نجوت من موت مؤكد ولم ألحق بصاحبي المعلم. كنت أتساءل وحسب عن معنى حياة كلب بلا رفيق ولا أهل، في بلد خَرِب آيل إلى خراب أعظم؟

لم أتم تفكيري بعد حتى شعرت بالشاحنة تنعطف في طريق جانبي وتدخل حقلاً أجرد بانت أشجاره مقطوعة أو لا تنمو أكثر من شبرين فقط، وكل ما يملؤه بيوتاً واطئة أو حفراً علتها شواهد وعلامات لم أخطيء بمعرفتها. كنا قد دخلنا مقبرة شاسعة تدرك بدايتها ولا أمل لك بالوصول حتى خطها النهائي.

بعد خمس دقائق من التجوال يميناً وشمالاً، توقفت الشاحنة في زاوية من المقبرة. أحسست بوقع أقدام السائق ومساعده وهما يهبطان منها وسمعت أحدهما ينادي على آخر أو آخرين بأنهما قد وصلا وليستعد الجميع لطرح الجثث من القلاب حتى الأرض. كنت متأهباً رغم جراحي وإنهاكي بأن أفاجئهم لو شاؤوا القبض عليّ. ما أن فتحوا أقفال القلابة وركزوا مصابيحهم علينا، حتى شهرت أنيابي وقررت أن أجابههم. نبحت بقوة ما أن أطل أحدهم، فكان أن جفلوا وصرخوا هاربين، ليعودوا بعد حين يحملون الأرفاش وقد صمموا على مواجهتي، عبرت بسرعة الجثث الممددة وطفرت إلى الخارج يطارني أحدهم.

"لا بد أنه كان ينهش من الجثث!". سمعت السائق يخبر مساعده.

- ولكن كيف جاء معنا؟

- لا أعرف، لا بد أنهم لم يروه بين الجثث.

ابتعدت عنهم وتنحيت جانباً بالخلف من جذع شجرة مطروح ورحت أراقبهم. سمعت مساعد السائق يعد الجثث ويقدم كشفاً بها للدفان، تناهى لسمعي ما قاله له بأن العمل لا يتوقف والجثث تملأ الشوارع والبيوت والنهر، لا مدينة ولاحي سلم من التصفيات والقتل، وبعض الجهات الصحية أخذت على عاتقها حمل الجثث التي لا عائلة لها ولا منْ يطالب بها حتى المقابر ودفنها بصورة جماعية كي

لا تنتشر الأوبئة. مع ذلك - أضاف السائق - فما زالت مناطق كاملة قد دب فيها المرض والقتل والتشريد دون أن يستطيع أحد المساعدة ولا الاقتراب من أحيائها.

ما أن انبلج الصبح حتى انتهى الدفان ومساعديه بردم الحفرة الكبيرة التي ضمت - إضافة لجثة صاحبي المعلم - جثث أخرى لناس أبرياء بعضهم لم يحظ برفقة ولا كلمة وداع.

بعد أن غادر الجميع، وقفت على قبر المعلم ورفاقه المجهولين وظللت أنبح عالياً ومطولاً بدون توقف، أسرد على معلمي وصاحبي ما علمني إياه وما أريد أن أبين له ما أختزنه من ألم وحزن على فراقه. مضيت بنشيدي حتى سقطت متعرقاً تعباً بلا نفَس عند القبر الطري لصاحبي المعلم ورفاق قبره الغرباء.

قبل أن أشعر بضربات الشمس وحرقها، تنبهت لحركة غريبة ونبشاً بالقرب مني إلى درجة أن التراب المتطاير منها قد طمرني تماماً. رفعت رأسي فرأيت عصبة كلاب قد بدأت تحفر قبر المعلم وصحبه، بل أن البعض قد وصل للجثة الأولى وأنشغل بسحب قميص وأذرع وأقدام مدفونة. هجتُ وطفرت مصارعاً تلك الكلاب التي ظنت بي صاحب ملك أدافع فيه عن حصتي، ولما شعرت بقوتي وتصميمي في تلك اللحظات، هربت ولم تعد تقرب من القبر. رأيت ثلاثة منها قد تمركزت في الطريق دون أن تهرب وتبتعد نهائياً، وكأنها تنتظر فرصة لمواجهتي من جديد. كنت مستعداً للتقاتل والموت حتى لا يصلوا لاستخراج جثة المعلم وتمزيقها. بقيت لوقت طويل متأهباً شاحناً إرادتي ومتيقظاً لأي طارئ أو اقتراب من الكلاب المستمرة في زاويتها تراقب كل شاردة وواردة في المقبرة.

تخلصت من الكلاب وهجومها المحتمل بعد أكثر من ساعة، عندما حضر جمع من البشر برفقة الدفان وبدأوا يرمونني بالحجارة

لطردي ظناً منهم بأنني المسؤول عن نبش القبر الجماعي، خاصة وأن الـكلاب الأخـرى قد تركـت ظاهرة للعيان الملابس الممزقة والأذرع الممتدة كأنها تطالب بطوق النجاة.

هربـت وقـد أصابنـي غضـب وحجارة الجمع. لـم أحفل بذلك لطالمـا شـعرت بالآمـان منْ أنَ المعلم سـيحضى أخيراً بحراسـة من البشر ولن يقع بين أنياب الكلاب المفترسة.

رأيتهم يطمرون الحفرة من جديد، ثم يصبون الإسمنت والحصى فوقهـا وراقبتهـم كيـف يعلون الأرض بالطابوق ومن ثم يعلقون قطعة خشبية بأسماء من عرفوا من الموتى المدفونين.

عندمـا رحلـوا اقتربت من القبـر الجماعي الذي أصبح أميناً من الصعب نبشه، وقرأت ما كُتِب على اليافطة الخشبية التي غرزت غرزاً في إسـمنت القبر. لم اقرأ اسـم المعلم أو ما يشـير له وكأنه لم يكن بينهم أو أن الرصاصات قد مزقت جسداً آخر غير جسده. "آه يا إلهي حتى في موتنا لا خلاص لنا من الحظ التعيس!".

لـم أصبـر، طفـرت ورحـت خلف الرجال بحثـاً عن حل. هناك عثرت على سطل الصبغ فحملته وعدت به حتى قبر صاحبي ورفاقه، وهنـاك حاولـت بكل جهدي أن أسـتغل الفـراغ الوحيد المتبقي على قطعـة الخشـب، بصعوبـة كبيـرة كتبـت (هنـا يرقـد صاحبـي المعلـم أيضاً....)، دونت اسمه مقلداً ما رأيت المعلم نفسه يفعله في مرات عديـدة. بانـت حروفي كخربشـات قياسـاً للخطوط الأخـرى، الوحيد الذي سـيفهمها سـأكون أنا نفسـي... لا يهم، المهم أن لا يضيع أثر قبـر المعلـم لـو حدث وعـدت لزيارته، أو على أبعـد تفكير أن يعود ذات يوم ولداه المنفيان ليبحثا عنه.

شعرت بالارتياح أنني لـم أتركه عرضة لمفاجآت الحياة والبشر. مـن الآن ولاحقـاً هنـاك ما يشـير لمرقد صاحبـي وداره الأخيرة على

هـذه الأرض التـي أحبهـا أكثر من أولاده ولـم يتركها رغم التهديدات والعنف.

رميـت علـى القبـر أغصانـاً خضـراء ممـا عثـرت عليـه في هذه المقبـرة الجـرداء، وطفرت دموعي بلا إرادتي توديعاً لمعلمي. تركت المقبرة ورحت أمضي في طريق يحملني بعيداً من هنا. أدفع بجسدي دفعاً، تنز جراحي وتؤلمني ساقي المصابة. قررت أن لا أنظر للخلف، قررت أن امضي بلا وجهة.

عند البوابة الخارجية، ما رأيت أحداً غير ظلال الكلاب الثلاثة مترقبة خروجي.



معاركي الشخصية وخوفي
الذي يتفاقم كل يوم

بعـد أسـبوع جائبـاً أزقة بغداد وشـوارعها، لا أحفل بشـيء غير الدوران من جهة إلى أخرى. جائعاً، جريحاً، معطوب الروح والجسد. مصابـي لـم يلتئـم، وذكرياتي ما زلت تدور في أمكنتي واحبتي الذين تركت خلفي. لم أكن أرغب بشيء غير الراحة، لكن لا راحة حولي، ضوضاء قاتلة تتعقبني، قصف مستمر ومعارك لا تهدأ. دمار في كل مكان أحط فيه قدمي، دمار في كل جسد يلتقيني وفي كل العيون التي تبصرني سواء كانت لإنسان أو حيوان التقيه مصادفة. كلنا نمضي في وجهـة غيـر معرفـة، نبحث عن خلاص لا وجود له أو على الأقل لم يصلنا نحن الأحياء في تلك الأرض المحتضرة.

كنـت أمضـي أيامـي بصوم تام، لم آكل شـيئاً منذ أيام، والبحث بين البيوت أصبح أكثر خطراً من الدخول في معسكر مدجج بالجنود. كنـت انتهـز الظهـاري للاقتراب من براميل القمامـة أملاً بالعثور على مـا يسـد جوعـي. الحدائـق لم يعد فيهـا أي زرع أو خضار أو فاكهة، كما أن جسدي الضامر كان بحاجة لأي شيء يقويه، حتى إنني كنت متلهفاً لأكل قطعة لحم أو عظماً قد نسيت طعمها تماماً منذ أن قررت تجنبـي لـكل دم ولحـم وإلتجأت لأكل النباتـات. تذكرت لحظتها ما قرأه المعلم يوماً في رواية لا أتذكر عنوانها تقول: "لا أمل بنا، ففي الأوقات العصيبة، نسترجع شرورنا المخبأة في داخلنا وبأقل من هزة واحدة وكأننا لم نكن يوماً من الأيام نائين ورافضين لها!". هذا فعلاً ما أشـعر به الآن وفي الأيام التي مررت بها. كنت أطارد ظلي أو ما

يشبهه بعد أن غشاني الجوع وضرب في أشد أعماقي، فظللت بلا حراك وبنظر هامد يتفقد خلاصه من زاوية لأخرى.

مررت بالقرب من بيت عند أطراف المدينة ورأيت ما بدا لي كوماً من الأكياس المتناثرة والأزبال المتنوعة. عديت باتجاهها أشم هذا وأمزق ذلك بحثاً عن ما يسد رمقي. كانت الأكياس طافحة بكل قذارات العالم إلا من الأطعمة. الشيء الوحيد التي ضمته قطع خبز نتنة وجافة وعلب أطعمة فارغة رحت ألحس زيتها المتبقي لدقائق أملاً بأن يمنحني القوة للعثور على طعام مناسب في مكان آخر. كنت أراقب الجهات البعيدة وألمح كلاباً متفرقة تبحث مثلي، كذلك بشراً يمضون بأكياسهم وعرباتهم الحديدية التي يدفعونها بأيديهم أو يجرونها بانفسهم وكأنهم خيول أو حمير. الكل مضينا في بحثنا، عثرنا أم لم نعثر على شيء، مع ذلك كان يحدونا الأمل بمفاجأة سارة في تل الأزبال القادم.

تنحيت عن الجموع الباحثة وشرعت أجوب في المساحة الخالية الجرداء التي تمضي بي خارج المدينة، لم أعد آمل بشيء من طعام أو أمان. رفعت رأسي للحظات وراقبت الكلاب الثلاثة ما تزال تتعقب خطواتي. كلاب المقبرة نفسها وكأنني كنت هدفها الوحيد في هذه الحياة. لم يكن لي قدرة التصدي لها ولا معرفة نواياها، وخمنت أنني إذا ما نجوت منها اليوم، فيوم غد سأكون صيداً سهلاً لها. كنت يائساً ولم أعر انتباهاً لتحركاتها، بل مضيت في وجهتي غير المحددة كأي مستكشف يأمل من المجهول بمفاجأة سارة بأقرب فرصة.

توقفت فجأة فقد بدا لي أنني ألمح عن قرب كومة أزبال هائلة لا أحد قربها سوى صبي صغير قذر الثياب وقد صعد عند قمتها ينقب بين أكياسها داساً ما يراه مناسباً في كيس قماش معلق على كتفه الأيسر. اقتربت وصعدت قربه على تل القمامة. لم أره يجفل أو

يرتعب من وجودي، لمحته هادئاً أليفاً وكأنه قد تعود مندسين مثلي ينافسونه على غنيمته. لم أحفل به أنا الآخر ورحنا كصاحبين حميمين نجوب النفايات من جهة إلى أخرى، كل واحد منا يبحث عن مبتغاه. في لحظة خاطفة - ولم أحظ بعد بما يشفي غليلي - لمحته يعثر على عظم كبير مغطى بالشحم ووذرات لحم ملفوف بكيس شفاف. راقبته ينظفه من الأوساخ العالقة به ويهم بدسه في كيسه القماشي. لم أنتظر للحظة، قفزت بكل ما تبقى لي من قوة وهجمت عليه، طرحته أرضاً ورحت أمزق الكيس لأستخرج العظم. على الرغم من صغر سنه وضعف بنيته إلا أنه لم يتنازل بسهولة، بل جرى قريباً مني وعاد يحمل عصا يهددني بها. حظيت بالعظم ولم أبال بوجوده ولا تهديداته حتى شعرت بالعصا تقصم ظهري وترميني إلى أسفل كوم الأزبال.

حمل الصبي كيسه وعظمته ونزل ليغادرني راكضاً في الخلاء الواسع. عدوت خلفه وتشبثت بالكيس، بقضمة واحدة مزقته وتناثرت الاغراض على الأرض. توقف الصبي وعاد يهددني بعصاه، فجمعت قواي وقفزت على يده الممدودة بالعصا فعضضتها بقسوة، ولم أتركه حتى رأيت العصا تسقط من يده وألمحه مقعياً على الأرض مغطياً وجهه مخافة أنيابي. وقفت عند رأسه مكشراً ونابحاً. لم يأت بحركة فسرقت العظم ومضيت مبتعداً عنه. ليس ببعيد عن الصبي الذي تركته ممدداً على التراب، رحت أتلذذ بالعظم. كنت كمن أجرب شيئاً جديداً على طبعي، فأنا لم آكل شحماً ولم ألحس عظماً منذ زمن طويل، لكن تلك اللحظة كنت كمنْ اعتاد على هذا كل أيام حياته.

وأنا في فورة شراهتي قظماً للعظم وتقطيعاً لشحمه، تناهى لسمعي نشيج وعويل الصبي. إلتفت ورأيته ممدداً يحتضن يده المصابة. كانت طبعة اسناني قد نشبت في لحمه وقضمته وسال الدم

منها. "يا إلهي ماذا يجري لي، هل تحولت إلى وحش بغمضة عين، ما الذي يحصل لي؟!". في لحظات أدركت صلافتي، لا مجال لعذر الأوقات الحرجة العصيبة، في موقفي هذا فكرت بكل أولئك الذين آذوني في موقف ما وبدأت أفكر بأعذار لهم، ماذا يميزني عنهم؟ أنا وحش أيضاً أستغل أقرب فرصة لأظهر بشاعتي، وها أنا إزاء حالة مثل تلك التي حيرتني وأستغربت منها، فما أنا إلا واحد شبيه بها لا أكثر ولا أقل.

رجعت إلى حيث الصبي. وضعت العظم فوق كيسه الممزق، وقبل أن أعود أدراجي بلا أمل بلقمة طعام، تقربت من الصبي الخائف ولحست على يده المصابة متمعناً لمرة بقسماته الطفولية. رغم وساخته وملابسه البالية، كان صبياً طيباً بعينين واسعتين تشعان بنظرة متفائلة لا شر فيهما. لو كنا قد تعارفنا في وقت ماضي لأصبحت صديقاً له وهو صاحب لي بلا شك. لحست على جرحه بما يكفي ثم تركته لوحده مع كيسه والعظم الذي أرجعته له ومشيت حتى جهة أكثر غموضاً ومجهولية مما مضيت سابقاً.

بدأت الشمس المرتفعة تضربني بسياطها، جلت بنظري باحثاً عن ملجأ أو ظل أحتمي به. عن بعد لمحت حائطاً لبيت مهجور ومتهدم. لم يكن هناك من ظل سوى الإلتجاء بالتمدد أسفل ذلك الحائط. اقتربت ساحلاً أقدامي وما أن وصلت حتى وجدت الكلاب الثلاثة وكأنها قد جهزت نفسها لانتظاري. لم اعد أقوى على السير وليس لي قدرة على المجابهة والدخول بمعركة جديدة. وصلت عندها ولم أحد عنها، كنت كمن أناديها أن تقول بعملها حالاً. أقعيت هناك يكللني ظل الحائط ولم أنبح بأية كلمة اعتراض. بحركة سحرية من أحدها، أخرج كيساً مليئاً بأحشاء سمك، أرجل دجاج وفتات خبز ووضعها أمامي. رفعت رأسي متسائلاً، نبح صاحب الرأس الكبيرة

والنظرة المتوقدة قائلاً: "هذا لك، كل الآن، لا بد انك جائع!".

هجمت على الطعام ولم أترك شيئاً، ولو قدموا لي مثله ضعفين لأكلته دون أن اشبع أو أملأ ولو جزءاً بسيطاً من معدتي الخاوية. لم أنطـق بحـرف واحـد. لم اعد اميز حالتي، هل أنا في حلم، وهل هذا الطعام المعجزة شيئاً حقيقياً، وهذه الكلاب الثلاثة بنظراتها المتوجسة وحركاتها المريبة، هل هي حقيقية فعلاً، وهل هي التي تقدم لي الطعام أم أنني بدأت اهذي من وهج الشمس ولا أمل بشفائي...

غفيـت علـى صـور وجوههم وخيط لعابي يسـيل من فمي حتى الأرض الساخنة.



محنتي مع الكلاب الثلاثة
واللقاء الجدير بسرد وقائعه

عندما تنبهت لوضعي كان الليل قد غشانا ولم يعد لظل الحائط من فائدة، فكان أن حملت نفسي ومضيت.

نسيت تماماً وجود الكلاب الثلاثة التي كانت على بعد خطوات مني فتنبهت فوراً لرحيلي. هنا قام أصغرهم جسداً، بلحية متناثرة كحقل سيء الروي، بقطع طريقي وراح يكلمني وكأننا أصدقاء عُمر:

- أقول لك الحق أن الواحد منا ما أن يشعر بامتلاء المعدة حتى يصبح بمقدوره الحركة والتفكير بمشاريع قادمة!

قالها وعقب بعده صاحب الرأس الكبيرة كيقطينة فاسدة:

- نعم هذا ما أفكر به دائماً، معدة ممتلئة يدٌ طليقة.

مضيت وكأنني غير معني بكلماتهم، تاركاً مصير مهاجمتي بأيديهم - الأصح بين أنيابهم! -.

الخطوة التالية كان أن أوقفني ثالثهم دون أن يهجم أو يقوم بأي حركة مريبة، صاحبهم هذا كان بقدم مبتورة الأصابع ونظرة ثاقبة ليسرني بما يريد دون أي تأجيل:

- اسمع يا صديقي، نحن لا نطلب منك سوى المساعدة، عملية إنسانية لاغير. رأيناك تكتب وتتكلم مثل البشر وتفهم أكثر من لغة! لا تقل شيئاً الآن.. لقد أطعمناك ليس من أجل أن ترد لنا الجميل، يمكنك أن تمضي أينما تريد، بل نستطيع منحك المزيد من الطعام لو شئت. ما نرغبه منك هو المساعدة وحسب.. لنا أصحاب ألقوا القبض عليهم ونرغب بتخليصهم ولكننا ما أن نقترب من هدفنا حتى نواجه

بصعوبات.. ففكرنا.. فكرنا أنك بمعرفتك للغات قد تساعدنا بفهم ما يقولون. عندما تقدم لنا تلك المساعدة، إن شئت طبعاً ستتركك تمضي أينما ترغب وإن شئت البقاء معنا أيضاً، وبهذا تكون قد أرحت ضميرك بإنقاذ أبرياء.. أترك الأمر بين يديك ولن أضغط عليك أكثر!

قالها ودفع بقدمه المعاقة مشيراً للاثنين أن يتبعاه.

بعد أن مضوا بأكثر من عشرين خطوة، صحت عليهم أن يتوقفوا.

"سأساعدكم أن كان الأمر كما تقولون". تهللوا ووعدوني أن لا يزعجوني بشأن آخر، ثم شرحوا لي أمر أصحابهم المحبوسين في معسكر يحرسه جنود من قوات متعددة الجنسيات منهم أميركان وإسبان وبولنديين. لم أفكر بالأمر كثيراً، لأنني كنت وما أزال أشعر بالأسى والضيم متذكراً أيام حبسي الطويلة، لذا لم أرغب لأي واحد أن يمر بمثل ما مررت به حتى لو كان من ألد أعدائي.

تبعتهم وقد توغلوا في أكثر من حقل ومزرعة مجاورة حتى رأيتهم يخرجون عن الطريق العام، وتمترسوا هناك وأنا معهم لوقت بدى لي طويلاً. أخبروني أنهم يتحينون الفرصة لعبور الحد الفاصل الذي يحملنا حتى مناطق المعسكرات. لم أفهم شيئاً من ذلك، لكنني تقبلت تفسيرهم لطالما قبلت أن أساعدهم. لكن شيئاً بقي يدور في رأسي عندما نطق أصغرهم بجملته: "كيف لنا أن نتخلص بسهولة من الحرس المرابط هنا؟".. لم أدرك معنى الحرس وهل يعني بهم حرس المعسكر الذي علينا الدخول إليه أم كان يتحدث عن حرس آخر.

قبل أن تنزاح الفكرة عن رأسي كلياً، شعرت بهم يتقافزون من جهة لأخرى يجرونني معهم وواحدهم يقول للآخر: "يا للشياطين، لقد شعروا بنا مرة أخرى!". لم أعرف ما علي عمله آنذاك، هل ألحقهم أم أبقى مكاني؟ لحظات ورأيت عصبة كلاب متشابهة

الحجوم والأشكال تقيدني وترمي بي أرضاً، لتقوم باللحاق بالكلاب الثلاثة الأخرى وتأتي بها مقيدة هي الأخرى.

طرحوني على بطني، انفي يغوص في الطين وعيناي قد غشاهما الغبار والظلمة. لحظات وجاء كلب آخر لم أر منه غير قدميه الأماميتين. سمعت الكلاب الأخرى تأتمر له أو على الأقل تستمع لرأيه ووصلني صوته كمنسق للعملية، ثم يصمت قبل أن يخبر رئيسه قائلاً:

"هذا لا أظنه جاسوساً". ثم تناهى لي وهو يأمر الآخرين بإطلاق سراحي.

عندما نهضت تلاقيت بالجلد المرقع ذاك الذي لو تخفى لعرفته من بين الآلاف. لم يكن غير جرو، صديقي في الحبس المرير. لم يتقدم ليحتضنني ولا أبدى أي رد فعل ظاهر، مع ذلك لمحت في عينيه وعلى وجهه ابتسامة متواطئة. موقفه هذا حيرني فلم اقم بدوري سوى الانتظار.

- إلى أين تمضون؟ سألني.
- أنا ماضٍ معهم.
- إلى أين؟
- نرغب بالوصول إلى المدينة المجاورة للبحث عن أصحاب لنا. (لم أقل له بالطبع كل الحقيقة).
- هل هم أصحابك؟
- ليس تماماً، هم أصحاب لهؤلاء الثلاثة.
- وهؤلاء، هل هم أصدقاؤك؟
- يمكنك أن تقول هذا، لقد ساعدوني في محنتي.

اكتفى جرو بأسئلته تلك وأخبر رئيسه بأنه لا يجد ما يبرر توقيفنا. ثم اقترب مني قائلاً أنه يثق بكلماتي وسيترك الثلاثة أيضاً

بناء على كفالتي لهم. ثم قال أننا نستطيع الاستمرار بطريقنا. أطلقوا الثلاثة الذين التجأوا لرفقتي وظلوا متوجسين ينظرون إلى الخلف خشية ملاحقة أو نهش كلب هائج من عصبة الحراسة. قبل أن نمضي بعيداً، جاء جرو راكضاً ووقف قبالتي. دون أن يلمحه أحد من صحبه، احتضنني قائلاً: "رافقتك السلامة يا ليدر.. اعذر لي صلافتي، وضعي لا يسمح لي إكرامك بما تستحق وأكثر.. امضِ يا صاحبي الوفي". ابتسمت له وقلت له قبل أن يعود أدراجه "لا أفهم أي شيء يا جرو، ولكن لا تأبه لقد قمت بواجبك.. اعتن بنفسك". راقبته يمضي عن بعد وهو يهتز برشاقة، كان قد سمنَ قليلاً فبانت رقع جلده أكثر تميزاً مما بقي له من مساحات سليمة.

لم أعرف ماذا يعمل جرو وما معنى تواجده مع تلك العصبة المسلحة من الكلاب؟ لا بد أنها واحدة من أسراره التي لو أتيح لنا الوقت لسردها لي ولحكى لي عنها دون أن يهدأ له بال.

لم تنطق الكلاب الثلاثة بكلمة واحدة طوال مئات الأمتار التي قطعنا بعد أن تركتنا عصبة جرو بحالنا. المرة الوحيدة التي كلمني فيها كلب اللحية المتناثرة، كان في كلامه من الريبة والشك الكثير: "لا بد أنك مهماً حتى يعرفك كلاب الحراسة". لم أكن مجبراً على سرد حياتي ولا تفاصيل ما مر بي لأي واحد من الكلاب الثلاثة. أخبرتهم أن دوري معهم سيقتصر على أن أساعدهم بتخليص أصحابهم، أما مسألة أموري الشخصية فهي لا تهمهم بشيء.

مشينا زمناً وعندما أشرقت شمس الصباح شارفنا الوصول لمدينة هائلة متشابهة البيوت مبنية من القصدير والحديد، يحيطها سياج من أسلاك شائكة مرتفعة ذكرتني فوراً بموضع حبسي السابق.

"هنا يحبس أصدقاؤنا". قال لي أحدهم.

تمعنت جيداً بالمكان الخالي من الأشجار، كان لون التراب،

بلون الكاكي الحربي، لا شيء يمكن تمييزه غير لمعان العيون عندما تضربها الشمس أو الخوذ العسكرية بين حين وآخر.

قلت لهم بعد أن رأيت المعسكر مدججاً بالجنود ومحاطاً بسياج شائك موصول بأسلاك كهربائية صاعقة وتحرسه دوريات على مدار اليوم: "وهل فكرتم بطريقة مناسبة لتجاوز كل هذه العقبات قبل أن نجد أصحابكم؟!".

لم يمهلوني وقتاً، فقد رافقتهم يقودونني حتى زاوية بعيدة من جهة شمال المعسكر وطلبوا مني أن أنتظر إشارتهم للقفز والركض بسرعة متتبعاً خطواتهم. وهذا ما حصل فعلاً.. فما أن اجتازتنا دورية وغابت في انعطافة قريبة حتى نبح ذو الرأس الكبيرة وجرى الاثنان خلفه فتبعتهم بدوري. رأيتهم يقفزون ويسقطون تباعاً في حفرة على الطرف الآخر ليختفوا وكأن الأرض قد ابتلعتهم. طفرت ورائهم فاحتضنتني الحفرة وكأنها فراش ناعم وثير لأجد نفسي منحدراً كأنني أنزلق في أرجوحة أو زلاقة لأخرج منها فأجدني داخل المعسكر، بالقرب من مقراتها ومحاط بالجنود من كل جانب. لا بد أن الحفرة كانت لابن آوى أو لأرانب برية وتم توسيعه من قبل الكلاب الثلاثة. على أية حال دخولي بعدهم قد ألجمني حقاً، فما فائدة الدخول إن كنا مانزال عاجزين عن التحرك إزاء هذا العدد الهائل من الجنود!؟.

بقيت بلا حراك لدقائق. بعد ذلك لمحت الكلاب الثلاثة تقوم من رقدتها وتمضي إلى الأمام، تبتعتهم بالطبع وقد كانوا يتجولون وكأنهم من أهل المعسكر. أفهموني أنه لن يشك أحدُ بهم لطالما تعيش كلاب أخرى بينهم، كل ما علينا عمله هو أن لا نثير الشبهات ونمضي قدماً دون أن نتلفت. وهو ما فعلته مقلداً حركاتهم، إلا أنني بعرجي البادي لجرحي الذي لم يلتئم بعد ونحولي غير المعقول، لم أكن أؤدي دوري بالشكل المناسب أو على الأقل شبيهاً بهم أو

بكلاب أخرى عرفتها.

كان ذو النظرة الثاقبة يسير بقربي ويسألني عن كل مكان نمر به متسائلاً عن معنى الكلمات التي تطرز الأبواب والثكنات الحديدية الجاهزة، وكنت أجيبه بما تعلمت من لغات عن صاحبي المعلم: "هنا تقول اليافطة إنه مستودع طبي"، "هنا تجهيزات عسكرية"، و"هنا ذخيرة حية"، "هنا معدات مدفعية"، "هنا مخزن الخضر والفواكه"، "هنا مستودع الأطعمة والمشروبات الجاهزة"، "هنا غرفة الحرس"، إلخ من المسميات. وكله كان يكرره بعدي صاحب الرأس الثقيلة. ارتبت قليلاً عندما لم يبدر من أحدهم أن يسألني عن السجن أو ما يشير إليه. توقفت عن ترجمة ما أراه وبدأت وحسب أذكرهم أنني لا أجد ما يشير لمكان الحبس. وكانوا يطلبون مني أن أستمر بالترجمة، فليس مهماً - وهذا ما قاله أحدهم - أن نعثر الآن على السجن.

- قولوا لي الحقيقة، عن أي شيء نبحث هنا؟ توقفت متسائلاً عن نيتهم الحقيقية.

قال ذو الشارب المتناثر الشعيرات بأنهم يبحثون عن مستودع الطوارئ الحربية، فقد وصلتهم أنباء بأن أصحابهم قد سجنوا أما في الداخل من المستودع أو بالقرب منه. ولم ينطقوا بحرف أكثر.

عندما وصلنا تقريباً منتصف المعسكر، بالقرب من موقع القيادة العامة، عثرت على ما يشير لمستودع الطوارئ الحربية فأخبرتهم بذلك. هناك اجتمع الثلاثة بينهم وطلبوا مني بعد حين أن أراقب لهم البوابة المجاورة ليقوموا هم بالدخول وتخليص الأصحاب. قبلت بالطبع فقد كنت منقاداً لهم ولأنني حتى تلك اللحظة قد صدقت بما أخبروني به، كما أنهم كانوا على معرفة بالمكان أفضل مني وسيجدون أصحابهم أسرع مني.

بركتُ متأهباً في مكاني كي أنبح بهم ما أن أشك باقتراب أحد

مـا. لحظـات ليسـت أكثر من إلتفاتة سـريعة منـي، لمحت على إثرها الـكلاب الثلاثـة تخـرج هاربـة وبحوزتهـا كيـس كبيـر يتعاونون على جره ومن ثم واحداً بعد آخر يقفزون من فوق المستودع ليختفوا في الخلف، راكضين حتى أقرب نقطة من السـياج الشـائك. كنت متوتراً ولم أعرف ما عليّ فعله، جمدت في مكاني مراقباً تحركات الثلاثة، ولكنها ليست سوى لحظات قصيرة لأجد نفسي محاطاً بعصبة كلاب حراسة قد خرجت وطوقتني من كل الجهات، بعضها برز من داخل المسـتودع وأخـرى مـن البناء المجـاور وغيرها جـاءت تهرول برفقة جنـود مسـلحين يصرخـون ويتنـادون بينهـم بلغات شـتى، كنت رغم خوفي وهلعي أتميزها وأعرف فحواها.

غابت الكلاب الثلاثة عن نظري وكأن السياج قد ابتلعها أو غابت في أحراش البيوت المتناثرة هنا وهناك، تغطيها عاصفة تراب هائجة. كنـت مـا أزال في جلسـتي تلك حتى رأيتني تضيـق عليّ دائرة النباح والصراخ والأسلحة المشهرة بوجهي. لم تبد الكلاب أي تنازل، فقد شهرت انيابها استعداداً لتقطيع أوصالي لأقل إشارة من الجنود الذين هيأوا أسلحتهم وانتظموا بهيئة دائرية من البنادق المستعدة للتصويب.

قبل أن أسـمع الصوت الآمر برميي، لم يخطر على بالي سـوى النهوض على قدمي. رفعت جذعي ودفعت بصدري للأمام، أغمضت عيني مستقبلاً ضوء الشمس الحارق ومنتظراً طلقة الخلاص التي لم أكن أشك بأنها قريبة جداً من شعيرات جلدي.



نجمي الذي ينقذني دائماً
وما جرى لي مع القطة كاتيا

ليس هناك من تفسير معقول غير الذي أقوله لكم.

لا بد أنني قد ولدت تحت تأثير نجم الفأل الحسن وإلا كيف أفسر أنني لم أكن حتى الآن من الأموات في كل تلك المحن والتجارب التي مررت بها، والتي كنت فيها على شفا حفرة من الموت، قريباً من حتفي كما يقال!.

كما قلت، بغمضة عين أصبحت مطوقاً بشلة من كلاب متأهبة لتقطيعي وأكلي إن أتيح لها الأمر، كذلك البنادق المشهرة بوجهي، فلم ألجأ لأية حيلة ولا للهرب، أشهرت رايتي البيضاء وانتظرت. كنت متعباً عاجزاً بقدم كسيحة تماماً يضاف لها عدم فهمي لموقفي.. ما الذي أوصلني إلى هذه الحال، وكيف وثقت بالكلاب الثلاثة ولم أشك للحظة بنواياها؟ هي لم تنتظرني ولم تهتم بي إطلاقاً، ما رغبته هو استخدامي وتركي طعماً سهلاً للكلاب المدربة على القتل والبنادق المستعدة للتصويب كي يتسنى لها الهرب بسهولة، وهذا ما حصل فعلاً.

لا، لا أستطيع توجيه اللوم لأي أحد، أنا المخطئ الوحيد والمغفل الوحيد في هذه اللعبة. لذا رفعت رأسي ونفخت صدري بعد أن اغمضت عيني وانتظرت نهايتي بعظة قاصمة لرقبتي أو إطلاقة حارة تخترق صدري مثلما اخترقت تلك الطلقات الخارقة صدر صاحبي المعلم وأردته صريعاً بظرف ثوان.

ظللت جامداً على وضعي ذاك منتظراً أي صوت أو حركة من

الجموع المحيطة بي. لكن على ما يبدو أن شيئاً ما كان يشغلهم. مللت من لعبة تأهبي لقدري، ففتحت عيني لأتأمل ما يجري. رأيت أنهم كانوا على أهبة الاستعداد بأنياب مشهرة وبنادق مصوبة، هذه المرة برفقة ضابطهم الذي راح يراقبني ولا يسمح لأحد منهم بالاقتراب مني. بعد دقائق عادت مجموعة من الجنود مهرولة ليطرحوا عند قدمي الضابط كيساً ثقيلاً أنتشلوه من بين براثن الكلاب الثلاثة غير أنهم يتأسفون إذ لم يستطيعوا الظفر بهم. كانوا قد عاودوا بما سرقه رفاق السوء. بدى الارتياح واضحاً على وجه الضابط الشاب فأمرهم بعد معاينة الكيس أن ينقلوه حتى مستودع الطوارئ.

قبل أن يمضوا بالكيس ند عن أحدهم سؤالاً مكملاً: وماذا نفعل معه؟ (مشيراً لي، مضيفاً) هل نتخلص منه برميه أم تركه للكلاب الجائعة؟

التفت له الضابط موبخاً: هل تدرك ما تقول.. هل تعرف صنف هذا الكلب، أنه سابويسو هجين، أتعرف ماذا يعني ذلك؟

لم ينتظر إجابة، فكان أن طلب من حرسه أن يقيدوني من رقبتي ويسجنونني في غرفة جانبية، ثم أمر المتبقي منهم أن يعودوا وكلابهم كل إلى موقعه.

في غرفة حبسي الجديد، عاودني الإحساس بالقهر وتذكر أيامي المريرة التي أمضيتها بين الأسلاك الشائكة. الحقيقة أن مكاني هذا يختلف عن السجن القديم، لم يكن الوضع سيئاً هذا إذا تناسينا وضعي كمسجون مدان بالسرقة والتسلل لمعسكر في حالة حرب، فالحبس عبارة عن غرفة عادية (لي وحدي) صغيرة الحجم معدة بشكل مناسب للاسترخاء والنوم وفي زاوية منها تركوا وعاءً مليئاً بالماء وآخر بالطعام المجفف بهيئة أقراص مصنوعة من اللحوم والأسماك والخضر، عرفتها مباشرة لأنني كنت قد أكلت مثلها في

بيـت المعلـم وفـي بيوت أخرى عندما كنا نزورها في رحلات صيدنا العتيدة.

إزاء وضعي الجديد، تركت كل شيء للحظ ورحت اترجى غفوة عميقـة كنـت بأمـس الحاجـة لها. رغم جوعي لم آكل سـوى القليل، فجسـدي الجريـح كان يئـن بآلامه التـي لا تهدأ، كما أن التفكير بكل ما مر بي حتى الآن وبتلك الأيام السـعيدة التي عشـتها رفقة المعلم وعائلتي، وما تعلمته وقرأته وسمعته وخبرته من أمور الحياة، جعلني بشـك مـن انني فعـلاً هو ذاك الذي يمر ما بيـن الطرف ونقيضه، بين السعادة القصوى والتعاسة المجحفة، وبظرف أيام.

ليـلاً هجـع الجميـع فـي مناماتهم مـا عدا أفراد الحراسـة الذين أسـمعم يتصايحـون ويتنـدرون فيما بينهم قتـلاً وتمريراً للوقت. كنت متيقظاً بعد لا قدرة لي على إغماض عيني، مشغولاً بتذكر مقاطع من قصص قرأها علي المعلم كي ألهي رأسي الضاج بالأفكار المتناقضة ولكي أشغل وقتي، شعرت بوقع أقدام تقترب من غرفة سجني، ومن ثـم أسـمع طقطقـة فتـح الباب. مـا أن تم إنارة الغرفـة حتى وجدتني وجهاً لوجه أمام الضابط الشـاب الذي خلصني مؤقتاً من بين أنياب الـكلاب الغاضبـة. اقتـرب منـي دون خـوف وقرفص يتأملني. أشـار بإصبعـه أن أقتـرب منـه فامتثلـت لأمره، وضع يـده على جبيني وراح يمسـدني بأناملـه، ثـم حـل القيد عن رقبتي وطلـب مني أن أتبعه إلى الخـارج. تركنـي طليقـاً دون مراقبة، كل ما فعله أن تقدمني بخطوات قصيرة ذارعاً أرجاء المعسكر دون أن يلتفت، كان واثقاً من أنني أتبعه ولن أهرب كما فعلت الكلاب الثلاثة.

دخـل بـي صالة عمليـات وبالقرب من أدوات جراحية ولفافات وأدوية جلس على كرسي ثم ناداني أن أصعد على محفة كاكية اللون. لـم أحتج ولـم أتسـاءل، كنت أراقبه وهو يعالج جراحي المتسـببة من

الطلقتين ومن النهش الحديث والقديم. بعد أن اطمأن على حالتي، خرج بي حتى السياج. وقفنا عند نقطة هي الأقرب من الخلاء الواسع الذي جئت منه في تسللنا البارحة. جلس الضابط وراح يفتح لي ما بين الأسلاك الشائكة بما يكفي لخروجي وتسللي من المعسكر. بعد أن انتهى من ذلك، واجهني قائلاً:

"ماذا تنتظر أيها السابويسو الهجين، هيا أخرج! أختفي عن أنظاري، لو أنتظرت ليوم آخر سيتخلصون منك بسهولة.. لست جديراً بميتة بشعة كالتي يفكرون بها.. أنت محظوظ لأنك ذكرتني بالسابويسو الذي تركت في بيت العائلة في إسبانيا، لهذا أنقذك أيها الهجين.. هيا أمضي بسرعة، واحترس في المرة القادمة، فالحياة لا تمنحنا نعمها كل يوم.. أعرف أنك تفهمني وتفهم لغتي.. هيا لا تتباطأ.. مع السلامة، آديوَس".

وسع لي الفتحة أكثر وهربت منها لأمضي يسترني الليل من عيون المراقبين والدوريات.

قبل أن أختفي نبحت بكلمتين للضابط مبيناً له أنني قد فهمت كل نواياه الطيبة وكلماته المتقطعة.

ركضت بلا توقف لكي أبتعد عن خطر دوريات الحراسة، فقد وجدت نفسي محاطاً بقواعد عسكرية على مدى عشرات الكيلومترات، تركتها خلفي بعد جري لأكثر من ثلاث ساعات. وجدت نفسي متوغلاً في صحراء شاسعة، مساحات لم يخطر على بالي أن اطأها يوماً أو يمكن لها أن تكون قريبة مني، انا الذي عشت في المدينة وبين الخضرة والماء الجاري. ليل الصحراء لا يمكن احتماله، برد قارس تصطك له الاسنان ويقشر الجلد كأصداف سمكة نافقة. على الرغم من أنني معتاد على تحمل البرد والتصدي له بشكل وآخر إلا أنني كنت مقيداً عاجزاً عن إيجاد وسيلة لتفاديه. مضيت بمسيري

باحثاً في الوقت نفسه عما يعينني على البقاء حياً حتى صباح اليوم التالي لأتكفل للأمر بشكل أفضل.

قبل أن تنقضي ساعات الليل، لمحت على يميني ما يشبه أطلالاً من بناء قديم هجره أصحابه أو يعود لزمن مضى كان فيه ملجأً أو موقع حراسة، فالتجأت له. هناك حشرت نفسي بين أركانه متكوراً ومحاذياً الجدار الواقي من الريح التي تحمل البَرْدْ القارس. فكرت أن أستريح لساعة قبل أن تنبلج شمس الصباح. شممت رائحة غريبة عن المكان وإن بدت لي مألوفة أو مررت بمثلها دون أن أدرك ما هي، لكنني في تلك اللحظة لم أكن واعياً بحالي ولم يترك لي عواء الريح فرصة معاينة المكان ولا حتى الاختيار لأنه كان المكان الوحيد المتاح لي. بدات أتميز روائح المكان وأعزلها عن رائحة الرمل والبرّد الصحراوي. لم أشك بأن الخطر يحيطني بهيئات مختلفة، ضبع، بنات آوى أو لدغة أفعى، مع ذلك أغمضت عيني وأسلمت أمري للصحراء وبهائمها الليلية، متطلعاً أن أكون على قيد الحياة ما أن تلسعني الشمس بعد سويعات. لم أشم ما يوحي بوقوعي في شرك ذئاب أو أية دابة مفترسة، مطمئناً لوضعي رحت في غيبوبة لذيذة بعد دقائق تحمل قرصات البَرد.

يبدو أنني كنت منكسراً ومتعباً إلى درجة أنني لم أنهض على لسع سياط الشمس، فحتى هذه لم توقظني من نيمتي. فتحت عيني عندما أحسست بأن هناك منْ يتمسح بي ويندهني برقة. عندما أمعنت النظر بعينين نصف مغمضتين ضبابيتين ومتعبتين، رأيت امامي ما يشبه الأسد، فقمت من مكاني فزعاً أبحث عن وسيلة للهرب من بين براثنه قبل أن يطبق أنيابه على رقبتي ويفترسني أو على أقل احتمال أن يقصم ظهري بضربة من مخلبه.

عندما قفزت مبتعداً، وصل لسمعي مواءً خافتاً. توقفت ملتفتاً

ناحية المواء فوعيت أنني قد هربت خائفاً من قطة صغيرة، جفلت هي الأخرى واحتمت بين الأحجار المتناثرة. هناك أدركت أن وجودي لا بد وأن أخافها أكثر من خوفي غير المبرر.

لم أعرف طريقة للتواصل معها، فهذه هي المرة الأولى لمواجهتي قطة. عدت أدراجي وجلست مجدداً في مكان نومي، لعل في ذلك إشارة مني أنني لا أرغب بايذائها. لا بد أن تصرفي قد جاء بثماره، لأنني رأيتها بعد حين تترك مخبأ أحجارها وتدور في مكانها لأكثر من دورة، وفي كل واحدة تقترب مني، حتى وصلت اخيراً لترقد جواري. ظلت تبحلق بوجهي دون أن يرمش لها حاجب كما يقال. راقبتها هذه المرة بتمعن فكانت أشبه بنمر صغير، جلدها البني المخطط وعينيها الواسعتين الملونتين يشيران دون شك بنسبها لفصيلة الكواسر تلك. مع ذلك كانت قطة مسالمة لا تلوي على شيء، جلست وحسب بقربي وبكل ثقة. كانت وكأنها تنتظر لقائنا وتلك فرصتها لأنها ما أن هدأت حتى راحت تمطرني بأسئلتها التي كنت أجيب عنها أحياناً باختصار وأحياناً لائذاً بصمت مطبق. لم اكن متوجساً منها، كل ما في الأمر أنني لم أعد أمنح اهمية لكل ما مر بي، فما لاقيته قد صدمني وغير منطق ما أراه عن الآخرين وعن الحياة نفسها.

كاتيا، وهذا اسم القطة كما أخبرتني، (كانت قد أسمتها صاحبتها بهذا الاسم تيمناً ببطلة فيلم روسي قديم) لم يهدأ لها بال بمعرفة كل شيء عني. صدقها وعفويتها في الحوار كان يوصلها أحياناً لأن تجهش بالبكاء عندما عرفت أجزاء من حكايتي، ما مر بعائلتي ومأساتي بموت المعلم وظروف حبسي وتشردي، حتى وصلت إلى ما عشته محاطاً بعشرات البنادق والأنياب الكلبية المهلكة. كانت بين حشرجة صوت ومطقة تتابع، تهز رأسها وتؤكد على أنني لا بد أن أكون كلباً وفياً لأصحابي لهذا خدمني الحظ بالنجاة من المصائب

التي أوقعني فيها القدر أو البشر والبهائم سواء.

- أجل يا كاتيا.. ولكنني لست بسبعة أرواح مثلك كي أطمح بالنجاة في المرة القادمة؟ قلت معقباً على كلماتها.

"ماذا تقول!؟" نطقت بجملتها وانقلبت على ظهرها ضاحكة مهرهرة وكأنها بانتظار هدية كهذه كي تنفتق خاصرتها عن مغزى الحياة القططية وخطأ ما نتصوره عنها؛ فقالت بعد لأي:

"ليس حقيقة ما يقال أننا بسبعة أرواح، كل ما في الأمر أننا تعلمنا الزوغان والمداهنة، وتخمين القادم، كل ذلك للحفاظ على رمق حياتنا، الوحيدة الواحدة التي لا تثنى. وفي كل محاولة كأننا نعيش أكثر من مرة، فما أن يرانا أحدكم حتى يظن بأننا قد متنا في محاولتنا الأولى والثانية والثالثة، فيظل يحسبها علينا واحدة من حيواتنا السبعة.. كما ترى يا عزيزي أنني واحدة وأعيش عيشة واحدة لا غير، لو حصل الآن وأعتدى عليّ أحد سترى بنفسك كيف ألفظ أنفاسي أمامك ولن أستطيع التعويض عنها باحتياط ثان أو ثالث، لكن قبل أن يحصل ذلك أكون قد وليت الأدبار واختفيت قدر المستطاع.. الحقيقة أننا أكثر حرصاً على إيجاد معنى لحياتنا الواحدة، لذا نمضي متأنين نستذوقها قطرة قطرة بلا مجازفة ولا عنف.. ترانا نميل للاستكانة والهدوء والأمكنة الأليفة المريحة..".

قالت ذلك القطة المسماة كاتيا وراحت في موجة تذكر لم أخرجها منها إلا بعد محاولات عديدة وتوقفات أطول. عرفت منها أنها كانت تعيش في المدينة، في بيت صاحبتها التي أطلقت عليها اسمها وربتها خير تربية، لم تحظ برؤية امها ولا ابيها ولا أي شقيق لها، ما أن فتحت عيناها للمرة الأولى حتى تلاقت بنظرة صاحبة الدار الحنون ورفقتها الدائمة. بعد الذي حصل من قصف ودمار المدينة، اختفت صاحبتها في ظروف غامضة، ولم ترها بعد ذلك. فكان أن

هجرت البيت بعد أن أحتله ناس آخرون لا تعرفهم، وطوردت من قبل الأطفال والكلاب وقطط الشوارع. وفي كل مرة تجد نفسها قد تعرفت على الحياة بشكل اقرب مع كل شبر تخطوه بعيداً عن مدينتها ودار صاحبتها، ومع كل خطوة أصبحت أكثر حرصاً على رمق حياتها.

"لن أجزع حتى أعثر على صاحبتي" نبهتني، ومع قولها تذكرت هلعي ومطاردتي لآثار معلمي.

لهذا هي اليوم تتنقل بين المدن، إذ أنها تشعر بأن صاحبتها تنتظرها في مكان ما، تتعقب آثارها ورائحتها على بعد آلاف الكيلومترات، تحس بأنه في النهاية ستلتقيها. إيمانها بأنها ستعثر عليها أكبر من فرصها بالنجاة من المعتدين ومن الأجواء الصعبة للبلاد والأزمنة المميتة التي نمر بها.

ما أن استرجعنا قوانا حتى مضينا تحت وقع الشمس اللاهبة بالاتجاه نفسه لأكثر من خمس ساعات، أحملها على ظهري حتى لا تتعب. عندما وصلنا بالقرب من خرابة في وسط صحراء جرداء، مهدودي القوى جوعى يقتلنا العطش، أخبرتني القطة كاتيا أنها ستظل هناك حتى اليوم التالي لتعاود سفرها ولكن بوجهة معاكسة لطريقي. ودعتها إذ لم أنجح بأن أثنيها عن عزمها، شكرت لها رفقتها وثقتها وحكاياتها التي لا تنتهي والتي كانت زادنا تعويضاً عن الجوع والعطش الصحراوي. تركتها ومضيت أكتوي في صهريج الصحراء وسرابها الذي قادني من واحة وهمية إلى أخرى دون أن أصل لواحدة كي تطفئ ظمأي أو أجد مستقراً مريحاً قبل أن أحزر إلى أين تحملني أقدامي.



ما أن أخرج من حفرة حتى أقع في بئر،
وقصة لقائي بالكلاب المسعورة

كنت قد توغلت كثيراً في صحراء تزداد شراسة مع مرور الوقت. لـم أعـرف حقـاً كيف يمكن أن يكون البلد من هذه الجهة أرض بور متصحـرة.. إذاً كيـف يسـمونها ببـلاد النهرين والينابيـع الجارية وجنة الرب على الأرض!؟

لم أحر جواباً، تعلمت آنذاك أن الأمور على حقيقتها لا بد وأن تجربهـا بنفسـك وتخطـو خطواتك الخاصة كي تحدد معنى للأشـياء والأماكن، بل وحتى الكلمات.

لم اعد أنظر للخلف فقد بات من المستحيل العودة للوراء، ولا الإلتفـات إلـى الجهـة التي مضت فيها القطة كاتيا لأنها أصبحت أبعد مما أتصور. كل ما رغبت به أن أمضي بعيداً عن العاصمة والمناطق التي مررت بها والمدن التي حللت فيها، بعيداً عن كل شـيء، هرباً من كل شيء، لعلي بذلك أن أجد في البقاع المتاخمة ما يلئم جرحي النازف يوماً بعد آخر.

كنت قد تعلمت أيضاً التحسـب لشـمس وحر نهارات الصحراء وزمهريرها القارس. أصبحت كحيوان الخُلد، اعمى أمضي بمسـاري متطلعـاً بشـكل دقيـق بـكل مـا يمـر بـي وما يمكـن أن يفيـد أو يضر بتجوالـي، متذكـراً كل ما شـهدته ومتيقظاً مـن القادم. الطعام لم يكن بتلك الندرة ولكنني كنت أعتاش على العشـب القليل وأحياناً أقتات على حشرات غريبة أقتنصها في جحورها، حيوانات صغيرة أو صيد ليس بالسـمين لتغذية اوقاتي العسـيرة. ليس هناك مجال لتذكر الترف

ولا عدائي للدم واللحم. لم اعد أفكر بشيء سوى اجتياز عتبة الصحراء هذه دون أن أنفق، متأملاً أن تطأ قدمي أرضاً قادمة قد تمنحني الطمأنينة والأمان وتنسيني أوقاتي العصيبة التي مررت وأمر بها.

بين يوم وآخر، بل حتى بين اسبوع وآخر، ألتقي بكلب شارد، حيوان دخيل في خرابة وسط صحراء. لم ألتق بمجاميع كلبية أو بشرية، لم ألتق بأية عصبة. حتى لقاءاتي الفريدة بكلب ضائع أو حيوان منكسر تمر دون عناء أو تساؤل. كنا من الإجهاد والإحباط أن ننظر لبعضنا البعض دون أي تلميح بمشاركة الطريق، كل واحد منا يمضي بمسيره وكأننا لا نريد لأفواهنا أن تنعطب ولا لأقدامنا أن تنشل ما أن نتوقف.

كان قد مر عليّ أكثر من ثلاثة أسابيع جائباً الصحراء من جهة لأخرى آملاً بأنني سأصل الحدود قريباً. دون جدوى، ما كنت أجده أمامي حدوداً غائمة أو أنهراً وأحلاماً سرابية.

ذلك اليوم الذي ألتقيت فيه بعصبة كلاب مجتمعة أخيراً، لم يكن لا أسوأ ولا أحسن من بقية أيامي المنصرمة.

كنت أمضي منهكاً مطأطأ الرأس كعادتي لا أرفع عيني لأنظر أمامي إلا بين فترة طويلة وأخرى، بتلك الطريقة كنت أوفر الجهد حتى أجد مأوى، مكان أستراحة أو مخبأ مفاجئ. عندما رفعت رأسي أخيراً لمحت عن بعد عاصفة ترابية متأرجحة قريبة من الأرض تكاد تلتصق بقشرتها وتمضي بوجهة واحدة لا غير، باتجاهي. توقفت لوهلة مدركاً أنها عاصفة تراب غريبة لا تشبه العواصف التي مررت بها لأنها تصعد من الأرض ولا ترتفع أكثر من مستوى قامة الأجساد أو فوق مستوى الرأس كحد أقصى. لم أعثر في طريقي سوى على صخرة، فصعدت عليها كي أميز هذه الغمامة الترابية.

أخيراً خفت حدة العتمة وبان الحال. كنت فوق الصخرة أراقب العاصفة التي تجمدت فجأة ورأيت فيها عصبة كلاب تناهز الخمسة، كانت أمامي، بمواجهتي مما اعترتني هزة عنيفة لم أعرف التصرف معها. هل أفرح أن أجد أخيراً منْ يرافقني أو على الأقل أن ينصحني الدرب المناسب؟ أم أن أتوجس منها نتيجة المآزق الأخيرة التي رميت نفسي فيها؟

لم أنبس بحرف واحد، نباحي تجمد بعد أن تبينت حالي المتأسي إزاء العصبة الكلبية تلك. تبينتها بلمحة واحدة وتعرفت عليها. لقد وقعت بمواجهة عصبة كلبية مريضة، معتوهة، هدها المرض القاتل وأصابها الحر والطبيعة بالجنون. تميزت من ملامحها ما كنت قد قرأته في أيام رفقتي للمعلم بما يسميه البشر بـ(داء الكلب). راقبت الكلاب الخمس متهدلة الأذان، عيون حمر تعلوها غشاوة بيضاء، ألسنة متدلية بلعاب يسيل وأنف يخرُ كمجرى مياه. أذنابها بين أرجلها ورؤوسها منحنية كأنها تلامس الأرض بظهر متحدب وجذع واهي كأن البطن مندلقة تستريح على الأرض.

كانت تراقبني خائفة هي الأخرى مغمومة كحال منْ تجرع شراباً مسكراً. همها الوحيد في حالتها هو الهجوم ليس لجوع أو لافتراس صيدها، بل بسبب من خبلها الذي يأمرها بالترقب والقفز وجرح من يقابلها سواء كان بشراً أو كلاباً.

معرفتي بكل هذا أتاح لي فرصة التصرف. ظللت أنظر لها فترة منكسة الرؤوس، وفي لحظة حاسمة رميت رمية واحدة بعدة أحجار قريبة من قدمي، فتدحرجت بالقرب منها تلامس أجسادها، ما أن أنشغلت بها حتى دفعت بجسدي وقلت للريح أن تهبني نفختها.

لم يكن هناك من حل سوى الهرب. الهرب وأن لا يطالني أي واحد من الكلاب الخرفة، عظة منها كفيلة بايقاعي في شركها،

لأتحـول مثلهـا، مجنونـاً هائمـاً لا دليـل لـي. الجـري بخـوف معناه استكشـاف اتسـاع الصحـراء. كنـت مرتعباً من فكـرة أن تكون نهايتي مرضـاً مهلـكاً يحيلنـي إلـى مقعد لا نفع به، كمـا أنني لم أكن أتخيل نهاية مريعة كهذه. كل شيء إلا الموت المُضني هذا بين أنياب عصبة الكلاب الهائجة.

ركضت وركضت، تعقبها لي جعلني أطفر من جهة إلى أخرى، حذراً منها، أن تقترب مني وبالوقت نفسه متجاوزاً الأنهر السرابية التي تعترضنـي بيـن حيـن وآخـر، مع كل قفزة كنت أظن بها أنهراً حقيقية، لكن الصحراء تعيدني لواقعها وهي تسـخر من سـذاجتي. أجوس في الرمال، أتلهى منشغلاً عنها بالابتعاد منها، ولا أعرف جهة أخرى أحيد لها في صحراء ممتدة ولا مخرج منها سوى التذثر برملها والتلاشي بين طيات كثبانها.

المطـاردة تطـول، أنـا تعـب وهـي أكثـر تعبـاً. الصحـراء مغرية للاسـتراحة والتمـدد والنـوم الأبـدي الـذي لا قيام بعـده. مرة أخرى أقتـرب مـن السـراب، النهـر، الجـدول، ومـرة أخرى أنخـدع وأتقافز كـي لا أسـقط غائصـاً فـي مياهها... ولكن للحظة شـعرت بجسـدي يرتطـم بصخـب وسـمعت ما يشـبه صـوت حجر ثقيل يرتمي وسـط بركة "طوووووب!"... ووجدتني أعوم في مياه حقيقية.. ياه إنه نهر حقيقي! لا وهم ولا صحراء ولا سراب خادع.

حركـت جسـدي وعضلاتـي وأذرعـي لأبقـى على السـطح ولا أنحدر حتى العمق. من وسـط البركة راقبت الكلاب المسـعورة وقد بقيت عند الجرف لا تجازف بمتابعتي. فرحت لهذه المعجزة. تذكرت أن الكلاب بحالتها المرضية تفزع من المياه ولا تقربها. رحت مطمئناً أسـبح حتـى الجـرف المقابـل. نهر خلاص ينتشـلني فأعـود للإيمان بأقداري المنقذة.

لم يكن النهر نهراً تاماً، كان عبارة عن بركة عريضة وسط صحراء، لا علم لي كيف واية معجزة صنعتها. قد تكون ما تبقى من نهير أو بحيرة كانت ذات يوم واحة وجنة الضائع في الصحراء. كانت البركة من العرض والامتداد ما جعلها تقسم صحراء الكلاب المريضة عن صحراء تقيني لفترة من المطاردة والهلاك.

منطرحاً عند الجرف، مستنشقاً ملء صدري ومفكراً بمعنى حياة الواحد منا، بينما جسدي صاخباً ضاجاً ومتشبثاً برمق متابعة لعبة الحياة ومطارداتها التي لا تكل ولا تخلص.



قلبي يعثر على نصفه الآخر
وما جرى لي في بحور الحب

لا بد أنني قد نمت لوقت طويل أو غبت عن الوعي، فما اتذكره لا يُعد أكثر من كوابيس مفزعة تلاحقني فيها تلك الكلاب المسعورة التي تركت عند الطرف الآخر للبركة أو النهير أو أي اسم آخر يصلح كمسمى لذلك الجدول العريض. ذلك انني ما أن فتحت عيني حتى وجدتني ملفوفاً بحصيرة من الجريد ومستلق في بيت بُني على عجل من جذوع وسعف النخيل بشكل ذكرني بتلك الصرائف التي تشيد لاختباء الصيادين عندما كنت امضي مع معلمي في رحلاتنا الصيدية تلك والتي احن لها بشدة واتألم لتذكرها ذلك انني أعرف باستحالة استرجاعها ولو للحظة واحدة فحسب.

كان الخص فارغاً. نهضت متمشياً ومراقباً ما يحيطه لأعرف حقاً كيف وصلت إلى هنا لأن آخر ما اتذكره وأنا اغوص في المياه العميقة للجدول أنني كنت على وشك الغرق وكنت أجاهد نفسي وأقنعها أن تستجمع قواها على الأقل لتوصلني عند الجرف، ومن ثم يحق لها أن تفقد وعيها. لم انتظر طويلاً في تفكيري حتى رأيتها تخرج من بين اكوام حجرية، تبدو للناظر وكأنها ملكة تسير في حلبة تسابق، مدركة حظوظ الإعجاب التي ستقطف مع كل انحناءة من جسدها أو كل تدويرة والتفاتة من رأسها الشامخة كتاج إمبراطوري.

تصورت أنني ما زلت أحلم، ولكن على الأقل كنت أدرك انني في امتناع ومؤانسة رجوت فيها أن تطول، فلا شيء رغبته - وقد لاقيت ما لاقيت في أيامي المنصرمة - أكثر من استمرارية مراقبة

هذا الكائن المدهش وهو ينط بحركات رشيقة مدروسة متقدماً ولا شك باتجاهي.

عندما توقفت جميلة - وهذا هو اسمها والذي ستخبرني به فيما بعد - قبالتي، لم أعرف ماذا جرى لي. شعرت - ويا للهول! - للمرة الأولى في حياتي بإحساس غريب وكأن كل ما يحيطني في هذا العالم لم يعد له وجود أو معنى، كل ما يهمني أصبح متمركزاً بـ ريتا ونظراتها الباشة وكأنها توزع - إضافة للقهقهات - نسيم هواء منعش يفضي على الصحراء التي تطوقنا ما يشبه حضور لحظة حشْ أعشاب طرية يانعة في يوم مطير...

بقيت بلا أي رد فعل، جل ما فعلته أن بقيت اتأمل وجهها وتقاسيم تدويرة الرأس وفكها الدقيق وأسنانها المنحوتة بدقة، رفعة جذعها وانتصابه. لم تكن ريتا واحدة من تلك الكلاب التي قابلت ورأيت سابقا (دون أي تواصل حقيقي) بل كانت مختلفة تماماً، كان لها جلداً ناعماً كأنه قد من قماش القطيفة، كانت عندي رغبة ومنذ النظرة الأولى أن أتمتع بملامسته ومعاينة طراوته.. كانت بكلمة واحدة اسماً على مسمى.. جميلة!!

"هل سنظل هكذا حتى اليوم التالي؟" نطقتْ أخيراً.

"إذا شئت البقاء على حالك هذه فأنت حر ولكن على الأقل أخبرني ما الذي جاء بك إلى هنا... كما أنني غير مستعدة للاعتناء بك ليوم آخر".

قالت ذلك وارتمت ضاحكة متفكهة مني ومن بلاهتي بفم مفتوح يسيل لعابه ولسان أخرس يتأتئ بكلمات فارطة لا وصل بينها.

بعد ساعات، ما أن تعارفنا وقصصت عليها أجزاء مختصرة من رحلة حياتي وما جرى لي فيها من خطوب، حتى أخبرتني بدورها أنها قد اتخذت من هذه السقيفة بيتها الخاص بعد أن هجرت المدن

الكبرى وهجرها أصحابها، وأنها تمضي تقريباً كل أيامها وحيدة منعزلة تتلهى بالصيد والتجوال هنا وهناك ليس ببعيد عن خصها والذي تعود له ما أن تعتم الدنيا. البارحة - تخبرني - أنها تفاجأت بي مطروحاً عند الجرف، تكاد سلابيح الماء والبراغيث تقتات من دمي وجلدي، فكان أن سارعت لسحبي حتى السقيفة "لقد عانيت الكثير حتى تمكنت من سحبك حتى هنا، لا بد وأن عظامك قاسية صلبة بقوة الصخر" أضافت ريتا.

علمت منها أنني قد نمت ليوم كامل (وهو ما أدهشني لأنني لم أحظ بنيمة وافية كهذه منذ زمن!) وأنها بقيت جواري تخفف عني لسعات البعوض وتداويني بالكمادات لخفض حرارتي المتوقدة، كما أنها أنشغلت اليوم بطوله بمداواة جراحي القديمة والحديثة.

كنت ما أزال مصعوقاً برؤية جميلة أمامي، فكيف يمكنني إجابتها إجابة شافية وهي بالنسبة لي الآن منقذتي من موت محقق بعد أن كنت جثة على وشك التعفن تقتاتها حيوانات الصحراء وتمص من دمائها الهوام والبرغش. جميلة من تلك الكائنات التي تمنحك رضاها وتفهمها بابتسامة خارقة، بعدها لا مجال لتساؤل أو ممطالة. أعتقد أن كل الكلاب التي عرفتها أو قابلتها سابقاً، قد وقعت في مصيدة حسنها وتغنجها، ولم أشك للحظة بأنه قد هام بحبها جموع كلاب عديدة "أنت تبالغ!" تقول ويفرج وجهها عن درره المتلألئة.

كنا في حِل من كل شيء. نستمتع بالحديث وكلمات الغزل الذي تعلمته معها وعلى يديها، وأستخدمت ذاكرتي لأسترجع كل تلك الجمل والأشعار التي قرأتها وسمعتها عن العشق، تذكرتها كلها وزدت عليها كي أمنحها كلها لـجميلة التي وجدت نفسي بين ساعة وضحاها لا أقوى على التفكير بشيء آخر في هذه الكون أبعد منها ومن حسنها.

عندما فاتحتها بكل الذي يحصل لي، وصارحتها بأنني ناقص خبرة في أمور القلب، لم تنطق جميلة بأية كلمة ولم تفرج عن قمر وجهها، بل راحت في موجة تفكير وانسحاب تام عن المكان لتتركني وتمضي حتى زاوية من الخص وتقعي عندها.

"أنت لا تعرف شيئاً عني يا ليدر، أسراري ومحنتي كبيرة!".

- لا يهمني يا جميلة، أريدك أنت وحسب ومستعد أن أمضي حياتي معك بكل ما فيها من متاعب وأسرار.

- تقول الحق يا ليدر؟

- أصدقك القول إنني لم أشعر بسعادة منذ زمن طويل كوجودي قربك.

- وأنا أريد أن أكون جوارك يا ليدر ومستعدة لكل شيء، ولكن عليك أن تسمعني أولاً..!؟

وسردت علي ما جرى لها. لقد بيعت عشرات المرات، لم تحظ براحة منذ صغرها. كانت تنتقل كسلعة من بيت لآخر ومن مزرعة لأخرى ومن صالة عمليات لأخرى. في كل مرة كانوا يجبرونها على معاشرة كلاب من أصناف مختلفة وما أن تضع مواليدها حتى يفصلونها عنهم، ليعاودوا العملية من جديد. كانت قد مرت بحالات عديدة كهذه حتى نسيت احصائها ولم تعد تفكر بجرائها المتناثرين في أراضي ومزارع كثيرة. يوماً ما يطردونها شر طردة بعد أن اعتقدوا أنها لم تعد بنافعة لهم في تجاربهم تلك. كانوا قد رأوا فيها حقل تجارب وبطن ولود لا غير. أسابيع طويلة متشردة من مكان لآخر لا تعرف كيف تهتدي على مكان ترتاح فيه ورفقة تشعر بحميميتها. كانت قد نحلت وذبل عودها تقتات مما تجده في المزابل والجادات، تحولت إلى سارقة متشردة تتسلل إلى مزارع وبيوت مفتوحة الأبواب بدون أدنى تفكير كل ذلك كي تستمر على قيد الحياة. كانت قد

رضيـت بقدرهـا، مـع ذلـك أنتهى مصيرها وتغير كل شـيء ما أن بدأ القصـف والخـراب الـذي طـال كل البـلاد، مما أجبرهـا على مغادرة المدينة والابتعاد ومحاولة الوصول إلى أبعد بقعة ممكنة.

قبـل أن تصـل جميلـة إلى هنا، وقعت بيـد عصبة كلاب اعتدوا عليها وتركوها مرضوضة لا قدرة لها على الحراك. ما أن استجمعت قواها حتى قررت التنحي والعيش في هذا الخص متوارية عن الأنظار ولا ترغب بشيء غير الدعة والسلام، وأن تربي ابنها أو أبنائها "لأنني حامل مرة أخرى يا ليدر، ولكن هذه المرة لن يخطفهم أحد مني".

- سأكون بجوارك وسأكون أباً لهم يا جميلة.

قلت لها ذلك بكامل وعيي، فلمحت ابتسامتها تطوقني من أعلى شعرة في رأسي حتى البقع السود التي تصبغ أظافرأقدامي.



طريق سعادة القلب

أقصر من ومضة عابرة

عيشتي التي استمرت لشهر مع جميلة، لم تعادلها أية سعادة مررت بها، سوى من تلك الرفقة التي كان يصحبني فيها المعلم لزيارة أماكن مجهولة أو لحظات قراءاتنا وماقشاتنا التي كانت تمتد لساعة متأخرة من ليالي بيتنا المطل على دجلة. مع ذلك أعترف هنا أن سعادة اللقاء بحبيبة لا تعادلها كل كتب العالم وحروفه، وبما انني لم اجرب إحساساً كهذا سابقاً فقد كنت منقاداً للتجربة والرفقة الصارخة الجمال لجميلة، فهي بكل معنى الكلمة رفقة عشق متزايد ومشاركة لم آلفها ولم أتصور وجودها.

مع مرور الوقت أصبحت مسؤولاً عن الخروجات التي كانت تقوم بها قبل وصولي.

كنت أتجول في المنطقة وما يقربها للاستطلاع عن الأمور الجديدة، معرفة مَنْ يطأها من بشر وحيوانات جديدة، البحث عن فرص تعايش أو هروب أن تطلب الأمر، العمل على تمويه وغش الطرقات حتى لا يستدل أحد على مخبأنا، يضاف له البحث عن الطعام الضروري لبقائنا على قيد الحياة. إذا كنت أقنع نفسي ببعض ما أجد من خضر وأعشاب وثمر بري، كنت ملزماً لإشهار أنيابي والتعويل على سرعتي كصياد سابق لكي أقتنص ما يقع في طريقي من طيور وحيوانات شاردة لتغذية جميلة وجرائها التي تحمل في بطنها.

كانت الأيام تمر دون ضجر، سعادتي لا حدود لها برفقة ريتا، متطلعاً ربما للمرة الأولى لغد أفضل مما رأيت في أيامي الفائتة.

كنت أراقب جميلة مجاهدة تتحمل آلام الحمل دون أن تفقد اهتمامها بـي فـلا انتفـاخ البطن والإعياء قد نالا من رونقها وعذوبتها الفائضة. أمضيت الليالي أناجيها وأصوغ لها قصائداً جديدة عن العشق الأبدي ولقاء الروح بالروح، وعن انشطار قلب المحبوب منذ ولادته والذي لـن يكتمـل إلا بلقـاء الشـطر الآخر مـن قلب محبوبتـه. كذلك كنت ألقـي علـى مسـامعها حكايـات كنـت قـد قرأتهـا سـابقاً، حدثتها عن بلدان لم تسـمع بها وعن كتب وتواريخ لم تحظ بفرصة قراءتها ولا سـماعها. كانـت رغـم تعبها وحاجتها للنوم والراحـة أكثر حرصاً من أي المخلوقات التي قابلت بسـؤالي عن أخبار وقصص جديدة، وأنا بدوري لم أبخل عليها بكل ما سمعت وقرأت وما لقني إياه صاحبي المعلم.

كان حملها قد وصل أيامه الأخيرة وقد صابرت نفسها وتحملت بشـكل نـال تقديـري وإعجابـي المتزايـد بهـا. كانـت تدفـع بـي دفعاً للخروج من الخص وعدم الجلوس بقربها كسـجين. كانت تطمأنني علـى أنهـا قـد عاشـت وحيدة لفترة طويلة وتسـتطيع الاعتناء بنفسـها ساعات اختفائي وجريٍّ خلف صيد أو استطلاع ما.

كنت واثقاً من قدرتها بالدفاع عن نفسها لا سيما وأنها هي التي أنقذتني وانتشلتني من براثن موت محقق واعتنت بي وليس العكس. لـذا كنـت أخـرج كل صباحاتـي جرياً مـن طرف لآخـر بالخلف من طريـدة أو باحثـاً وحسـب عن الجـذور الحلوة والثمـر الناضج الذي يمدني بالقوة والطاقة الضرورتين لتشحيم عظامي.

ذلـك اليـوم عدت محملاً بحمامتين اصطدتهما أثناء شـروعهما بشرب الماء قرب البركة. لم أبال بعطشهما ولا رأفة بالطريق الطويل الـذي قطعتـاه في سـماء الصحراء قبل أن تجـدا مياهاً ترويهما، كنت وحسـب أفكر بـجميلة وما تحتاج له من غذاء يسـاعدها على تحمل

وضعها. ما أن أقتربت من خصنا حتى انتابني إحساس غريب بأنني قد فقدت حاسة الشم التي تدلني على أمكنتي المألوفة، مكاننا المشترك أنا ومحبوبتي، مكاني المعتاد الذي ألجأ له وأتآلف معه دون أدنى صعوبة. تلك المرة حمل لي الهواء ذكرى آلام فكرت أنها قد هجرتني ومضت من حياتي دون رجعة. أحسست بالهواء ثقيلاً يلطمني لطماً قوياً ولم أميز رائحة جلد جميلة وأنفاسها التي تسيطر عادة على أجواء سقيفتنا المشتركة.

قبل أن أصل للخص توجست شراً. كان المكان يعج بآثار أقدام عديدة، آثار متنافرة مرتبكة وصلت بهرج صاخب ومضت بهرج أكثر صخباً من وصولها. لمحت الخص مقلوباً رأساً على عقب، كأن المكان قد حضر معركة ضارية لم تنته بسهولة بل بعد نزاع شرس دام لوقت طويل. هناك في جانب من الخص لمحت جثة كلب أبقع فاطسة وعليها آثار ضرب وعض. تمعنت بوجه الكلب وعرفت فيه أحد الكلاب المسعورة التي تعقبتي منذ أكثر من شهر بالقرب من بركة المياه الضحلة.

لم أجد جميلة بالطبع. لمحت على الأرض بقع دم متخثر ما أن شممتها حتى تعرفت بها على دماء ريتا. كنت متوجعاً ومرتبكاً لا قدرة لي على فعل شيء، اللوم يقطعني والخشية من أن يكون قد جرى مكروه لحبيبتي هو ما شل حركتي. لم اكن مستعداً أن أفقد عزيزاً آخر، فما جدوى حياتي بعد ذلك؟

شممت المكان جيداً وحزرت من الروائح والآثار المتبقية إلى أين مضوا بـجميلة، فطفرت من اللهفة والحزن متعقباً الآثار التي تقودني إلى مكان مختطفيها. كانت الريح تقودني حتى الطرف الشمالي من البركة. عند طرفها القصي غصت بكامل جسدي في طينها لأنتقل حتى الطرف الآخر الذي جبته يوماً ما عندما طاردتني

تلـك الـكلاب المسـعورة. الآثـار تقودنـي إلـى المـكان نفسـه الذي حاصرتني فيه الكلاب ذوات النظرات المتوقدة والأذناب المتهدلة.

ليس ببعيد عن خرابة وجذع شجرة يابس، عثرت على ريتا.

كانـت حبيبتـي معلقـة بحبل حاصر رقبتهـا وتعلق بأحد الغصان المتيبسـة، بطنها مندلقة وطير كاسـر يأكل من أحشـائها. لم يكن هناك أحـد سـواها، لوحدهـا معلقـة كأضحيـة ونـذر لأحـد الآلهة القسـاة. لـم تفقـد جميلـة ملاحتهـا ولا وجهها البشـوش حتـى وهي في تلك المحنة والميتة البشعة. لم أعرف ما علي فعله. رقدت أرضاً متمسكاً بأقدامهـا المدمـاة وشـرعت أبكي. راحت دموعـي تطفر دون إرادتي، بكيـت جميلـة وأبـوي والمعلم وآلامي التي مـا توقفت لحظة، الحظ السيء يلاحقني من مكان لآخر وكأنه لم يكتفي بما حصد من أحبة. بكيت روحي الآثمة وآلام الأبرياء الذين يلقون حتفهم بلا سبب مثل معشوقتي الحبيبة.

بعـد وقـت والشـمس تضربني بسـوطها، حملت نفسـي ورحت أجاهد لأفك حبل مشنقة جميلة من الغصن كي أنزلها أرضاً. لممت أحشائها وأعدتها لبطنها المفتوقة. رقدت قربها متأملاً وجهها ورحت أنجيها بكل الكلمات العذبة التي كانت تسـتريح لها وتطلب مني أن أعيدهـا علـى سـمعها. تمنيـت لو تسـمعني حقاً لطلبـت منها الغفران لأنني لم أستطع حمايتها وهي تجابه موتها القاسي وحيدة بلا سند.

حملـت جسـدها حتـى أقـرب نقطة من البركة، فـي مكان ظليل تصلـه الميـاه الضحلـة، حفرت هناك حفرة عميقة تصل حتى الجذور الفارطـة بالقـدم لأشـجار كانـت ذات يـوم وارفـة أو لأعشـاب تمتـد لعشـرات الأمتـار تحـت الأرض. أردت لجسـدها أن تحتضنه جذور الشجر ما دامت جذور الكلاب والبشر لم تترك لها فرصة العيش ولو لمـرة واحـدة كي تتأمل بعينيها العسـليتين جرائهـا تلهو قربها في يوم

مطمئن لا يحمل لها أخباراً سيئة ولا وجوهاً مكفهرة تتلصص عليها. عندما واريتها التراب، سقيت الحفرة بالمياه وودعتها. كيف لي أن ترحمني الحياة وتدعني وشأني دون موتى ولا فقد لأحبة، هل عليّ التعود على دفن كل منْ أحب؟ كيف لي أن أصبر الروح على هذا الفقد وهذا العذاب المهلك؟

لم أكن أغادر قبر جميلة أبداً لو لم أكن قد وعدتها أن أقتص من مختطفيها وقتلتها.

حملت حبل مشنقتها معي كتذكار لي بأن لا أتهاون مع جلاديها أو أن لا يغرقني النسيان بمتاهاته.

لم أتأخر طويلاً بالعثور على عصبة الكلاب المجرمة. بحالها ذاك كانت تنتظرني ولم تدوخني بالبحث والتقصي عن مكان مخبأها. كانت عصبة الكلاب المسعورة نفسها تلك التي طاردتني وإن نقص عددها من خمس إلى ثلاثة كلاب، إضافة للجثة الفاطسة التي لا بد وقد سحقتها ريتا، كلباً آخر منها قد نفق بنزاع أو ميتة بغرق أو ضربة شمس. تواجهت بالنظرات نفسها، عيون حمر وألسنة متدلية ونظرات زائغة، بالكاد تتحمل أقدامها الهلع الذي يسكن أجسادها المريضة. كنت خائفاً مذعوراً ولا خطة لي بمواجهتها. ما حملني على التصدي لها هو كرهي المتزايد وحقدي عليها لأنها قتلت الكلبة الوحيدة الحبيبة في حياتي المتأرجحة ما بين الخيبة وفقدان الأمل بكل شيء مشرق في أيامي.

وقفت قبالتها، ولما رأيت عيونها متوقدة كجمر لاهب دون أن تحرك عضلة واحدة للهجوم عليّ. رحت أتطافر يميناً ويساراً حتى أوقد فيها شعلة الغضب فتنجر نحوي. نجحت بعد لأي ورأيتها تتبع خطواتي، فرحت أقفز بخط وهمي متشعب، غرضي الوحيد أن أقودهم حتى أقرب نقطة من النهير الراكد.

ما أن أحاطتني الكلاب الثلاثة وكانت على وشك أن تنقض علي وتغرز أنيابها في جسدي، قفزت عالياً أمام نظراتها المشدوهة لأعتلي حائطاً متآكلاً لبناء مهجور، وقبل أن أمنحها فرصة مراجعة تفكيرها الهذياني، كنت قد أصبحت بالخلف منها. بغمضة عين وإلتفاتة غير مكتملة كنت قد رميت بالحبل ليحيط بأقدامها، ثم قفزت حتى الجهة المعاكسة ساحباً الحبل بفمي وطارحاً بكل جسدي على الأرض لأدور حولهم بدورتين وثلاث قبل أن أشد الحبل شداً قوياً، ساحلاً أجسادها الثلاث مع بعضها كربطة طيور مأسورة، نفس الفكرة التي تعلمتها من أيام صيد الحجل مع معلمي.

ركضت والحبل في فمي جاراً الأجساد الكلبية نحوي بقوة. كنت قد أيقنت ذات يوم أنني لم أعد أملك القوة الكافية للتصارع، لكن الظرف دائماً ما يصنع حاجته ورغبته، يضاف لها القهر المتزايد في داخلي بأنني قد تمكنت من قتلة جميلة. مضيت في دربي حتى النهير، لا أكل من سحب الكلاب الثلاثة التي كانت تحاول جاهدة فك نفسها أو على الأقل التشبث بالأرض أو أية صخرة ناتئة في الصحراء. لم أتح لها أية فرصة للتنفس ومحاولة الهرب.

غصت في البركة قبلها وحركت أقدامي بينما أسناني تصك على الحبل المشدود على أقدامها. لم أنظر للخلف، كنت من ثقل الحبل أدرك أنها لم تفلت مني ولم تستطع التخلص من وثاقها. سبحت دائراً في النهير من نقطة عميقة إلى أخرى أعمق، ساحباً ربطة الحبل إلى العمق غاطساً حتى الأسفل لأرتفع بعد قليل لأتنفس. في كل مرة كان نباح الكلاب ينخفض شيئاً فشيئاً حتى شعرت في غطستي الأخيرة بأن الأجساد قد همدت وانتفخت ونفقت شاربة مياه البركة ولم تعد تنبس بأي صوت.

التفت أخيراً حتى الجرف لأسقط منهكاً، تاركاً الحبل يرتخي من

بين أسناني. من هناك راقبت الخيط يغرق ببطء تابعاً تلك الأجساد المسعورة وهي تمضي إلى حتفها، عقدة الحبل تقبض بشدة على أقدامها الميتة وقد أصبح جزءاً من آثاث الأعماق الراكدة.

كنت وحيداً عند الجرف، لا أثر لأحد. متأملاً حالي، مدمى أنزف من فم بأسنان مكسرة. كنت ما أزال حتى تلك اللحظة يتناهى لسمعي صدى نباح الكلاب المسعورة وهي تستجدي رمقاً أخيراً قبل أن تغرق وتمضي حتى متاهاتها.



المضي حتى الهاوية،
نحو الجحيم الحقيقي

لم أشهد لحظات أكثر قسوة من تلك التي مررت بها البارحة. بظرف ساعة فقدت أكثر المخلوقات قرباً ومحبة لي، كلبة تنبهت لي ومنحتني عاطفتها وحنانها.. كذلك أقتل ثلاثة كلاب دفعة واحدة بدون أدنى محاسبة للضمير.. يا للهول، الواحد منا لا ينقطع عن أن يكون مجرد بهيمة بلا تفكير. الغضب والكره هما المحركان الوحيدان للعالم الذي نعيش.. وأي عالم هو هذا.. أنه الجحيم بعينه، لا أثر لرحمة ولا مكان للمحبة، الجحيم بعينه.. الجحيم الذي نعيشه هو نحن أنفسنا.. جحيم نحن.. نحن الصنعة ونحن الجلادون ونحن الضحايا كذلك!

لم أستطع التفكير بلا أي شيء، لم اقرر بعد أي شيء، لا شيء يمسح عن رأسي ما عشته وبكيته. كان جل هدفي الهروب ولا شيء آخر. أمامي غموض تام، صحراء ممتدة بلا نهاية، صحراء الروح تقابلها صحراء مجحفة لا تشي بشيء أكثر من رائحة الموت القادم، وهي الرائحة التي أشتهيها حقاً، أرغبها وانادي عليها بهيئة عاصفة، ضربة شمس قاتلة أو أنياب قاطعة من أية بهيمة.. لم أعد أهتم بشيء، لا أخبار أترقبها ولا ذكرى منعشة أستعيدها كي تفرح قلبي وتمنحه أملاً بيوم قادم أفضل من الأيام التي مضت.. كل ما مررت به لا يذكرني سوى بالخراب والفقد والدمار الماحق.

الأيام التالية جائباً الصحراء بلا أية بارقة للوصول إلى مكان ما، شهدت فيها عواصفاً كانت تقتلعني من الأرض لتحط بي في جهات

بعيدة. عواصف رملية كدوامات تتصاعد وكنت اعرض نفسي كلياً كورقة جافة أو ريشة خفيفة كي تحملني بلا عودة. لكنها دائماً ما تخذلني وتتركني في مكان آخر محملاً بالرمل وكلل عينين، جامداً لساعة مثل عمود رملي. كنت قد يأست من الطبيعة، فلا شمسها ولا قلة عشبها ولا رمالها المتحركة ولا زمهريرها القارس، ساعدتني على الدخول حتى قاعة الجحيم الحقيقي لأستريح من عذاب الرأس كما كان عليه كل فرسان العالم الذين مروا بمغامرات مختلفة كي ينشدوا الخلاص والراحة الأبدية.. لكن منْ يتأمل مطراً في هذا الجفاف، إنما هو خائب لا يفقه من الأمور شيئاً وهذا ما كان عليه حالي.

كنت في مضي من حالة إلى أخرى، الشمس تحرقني نهاراً وتحيلني إلى فحمة داكنة بينما صقيع الليل الذي تصطك له الأسنان والجسد يحيلني إلى قالب متجمد وداكن أيضاً. أثناء ذلك كنت أتابع مسيرات الآخرين تمر بقربي وبمواجهتي، أفواج متتابعة، منهكون جوعى لا نلوي على شيء، ننظر لبعضنا البعض بلا رد فعل ولا حركة معينة. لمحت بشراً يدفعون بأغراضهم وأهاليهم يأملون بالوصول إلى هدف ما (ولكن اين هو الهدف؟). كلاب متشردة، سائبة، وحيدة أو مثنى وثلاث، ما لمحته على الوجوه جميعها، يأس وقنوط يصبغها ولا بد أنه نفس المحيا الذي عليه وجهي أنا الآخر. لم نتعب أنفسنا بالتساؤل أو التناهش، فالكل يوفر القليل من قواه المتبقية لمقاومة الصحراء ولعله يصل إلى بقعة أمان في أي مكان، في الأمام أو الخلف، أفضل من هذه التربة القاحلة التي لا زرع ولا ماء ولا ظل ولا رحمة فيها.

على العكس من الكثير كنت قد مشيت إلى الأمام بلا رجعة. شاهدت جماعات كثر من البشر والكلاب والحيوانات المختلفة تعود بخطاها حتى المدن القريبة، لكنني كنت قد قررت الهرب

وحسب بعيداً عن المدن وعن هذه الأرض، لا أفكر بالرجوع أبداً، خطواتي تقودني إلى الجحيم نفسه متوغلاً كل يوم بشكل أكبر باحثاً عن الخلاص النهائي أو الوقفة الختامية، لا فرق، أرغب وحسب بالاستراحة، فهل هذا بكثير!!

كنت أسير وقد بدأت أشعر برأسي يسيح من شدة سوط الشمس. كنت أداور وجهي ذات اليمين وذات اليسار فأجدني لوحدي. غابت آخر الأجساد منذ أكثر من ساعة، وانا الآن بلا رفقة، هائماً أسحل قدمي سحلاً. ما أن رفعت عيني متأملاً الأفق عسى ولعلني أرى ما يشي بخرابة، سياج ما، ظل أو سراب.. لم ألمح أي شيء، وكنت على وشك السقوط، فأنطوت قدماي وكأنهما قد انكسرتا ورأيتني أقع أرضاً، خطمي تمرغ بالأرض متنفساً ترابها ورملها. بالكاد أفتح عيني لأراقب سراب ما تبقى لي من رمق، سراب حياتي، سراب متلألئ مليء بكل المخلوقات التي أحببت وكأنها قد حضرت بقربي بعد أن أيقنت برحيلي المؤكد هذه المرة. كنت في تلك الحال لا أستمع لما يدور حولي ولا أرى بوضوح، عندما شعرت بمنْ يضربني على ظهري ضربة سريعة خاطفة وإن كانت باشطة أيقظت العصب المتبقي في الجسد...

- هيه تحرك وقلْ منْ أنت وماذا تفعل هنا وإلا فالموت نصيبك؟

لم أميز هيئة المتكلم معي، حاولت بكل قوتي أن أفتح فمي بلا جدوى. كان فمي يابساً محشواً بالرمل أكثر من النباح والكلمات الفارطة.

- ألا تسمع يا كلب، أجب وإلا؟ وضربني من جديد.

استرجعت آخر أمل لي قبل أن أواجه قدري وتنطفئ شعلة العينين ويختفي كل صوت وأثر من عالمي، فنبحت بصوت واهن قائلاً:

- ليدر... اسمي ليدر...

حينذاك سمعت منْ يقول: أميركي.. جاسوس...!!

فشعرت بأكثر من واحد يتناوب على نهشي وتقطيعي. سلمت أمري لهم وزفرت ارتياحاً "إذاً ها هو أخيراً.. الخلاص!".

وتخيلتني أجر جراً من زبانية الجحيم لنغطس سوية حتى القاع المهلك.



وقوعي بقبضة قطاع الطرق
ولقائي بزعيمها الجنرال

كنت قد سلمت أمري للخلاص النهائي الذي أدركت أنه قريب لا محالة، وان انفاسي الأخيرة الفظها الآن وحسب وستنطفئ شعلة عيني بظرف ثوان. كان جسدي يتطاير وتتناوشه الأنياب الحادة وأشعر بها تنغرز في كل أجزاء جسدي. في البدء شعرت بها مميتة قاسية مؤلمة، وبعد حين أصبحت مثل غرز إبر دقيقة لتنتهي بأن تكون بالنسبة لي بمثابة لسعات عابرة لا أشعر بأثرها سوى بتطويح جسدي من جهة لأخرى.

تخميني لم ينجح هذه المرة أيضاً.

بينما كنت اتهاوى ككرة بين أقدام الكلاب المتهيجة التي سبتني ونعتتني بالجاسوس، وجسدي لم يسلم من نهشها وتعذيبها، شعرت وكأن أحدهم قد ركلني ركلة قوية ليبعدني عن الأقدام المتوثبة المستمرة بالضرب والتقطيع، فما أن طار جسدي وحط بكل ثقله صاخباً ضاجاً كحجارة صلدة مثيراً زوبعة ترابية متعالية، سمعتُ من يؤنب الكلاب بأقبح الأوصاف ويتناوب على مواجهتها وتقريعها، وهي بين مصدقة ومكذبة لم تدرك سبب هياج ذلك الكلب الذي ينعتونه بالجنرال، ومن ثم يطلبون عفوه وسماحه لأنهم لم يفهموا ثورته دفاعاً عن كلب نافق "وفوق ذلك جاسوس!".

عندما سمعت تأوهات الكلاب تتصاعد ويخفت نباحها كأنها في انتظار أمر ما. سمعت صوته للمرة الأولى، صوت ذلك الذي يدعونه بالجنرال، وهو يقول جملة واحدة لا غير:

- اجلبوه عندي؟!

ثم مضى بوثبة واثقة وإن بدى لي يعرج من قدمه اليسرى بشكل لا يرى بوضوح لو لم أكن ملتصقاً بالأرض لصق الغبار بالغبار.

جرجروني هذه المرة بين أكثر من واحد منهم، لم تخلو جرجرتهم من قسوة وجسدي يخط على الرمال إلا أنهم لم يجرأوا على ركلي أو نبش الأنياب في رقبتي كوسيلة أسهل لنقلي. لمحت فيهم الغضب وعدم الفهم، لكن ما عدا الغضب المستشيط والأنياب المشهرة والألسن المتدلية، لم يقوموا بأي رد فعل عنيف، انقادوا لنداء ما يطلقون عليه "الجنرال" والذي على ما يبدو أنه المسيطر عليهم والآمر الوحيد بينهم.

وصلنا عند كوخ من طوب الطين وصفائح القصدير، وضعوني بخفة أمام الجنرال الذي أشار لهم بالانسحاب.

لم ينسحبوا بالكامل، ابتعدوا قليلاً عنا، كانوا يحيطوننا من كل جانب وإن كانوا سيسمعون كلامنا همساً. رأيت فيهم كلاباً ضخمة، جلودها مدبوغة من المعارك أو من أثر الشمس وريح الصحراء، إلا أنها كلاب قوية صاخبة نابحة لا يسكتها ساكت إلا نظرات وأوامر الجنرال نفسه. لم يبق الجنرال في مقعده طويلاً، بل تقدم حين تركوني مضعضعاً ضعيفاً لا قوة لي على القيام ومواجهته وجهاً لوجه. على العكس مما توقعته، انحنى الجنرال قربي وتركني لأتمعن بملامحه لوقت طويل. بدى لي مهيباً بوجه صارم، شارب كثيف ورأس ضخمة، لا يميزه عن الكلاب الأخيرة المطيعة لأوامره سوى ذلك الإصرار على أن كلمته هي العليا. في لحظة خطرَ على بالي أنني لا بد وأن تقابلتُ به ذات يوم. ملامحه رغم انغلاق عيني وتعبي بدت لي مألوفة أو على الأقل من تمعني بعينيه، تأكد لي أنه لم ينو القيام معي بتجربة قاسية من تلك التي عاملني بها أتباعه، بل لمحته ينفرط

وجهه عن ابتسامة تطمين وإشارة واضحة لنجاتي.

- إذاً تدعى ليدر؟ سألني أخيراً.

- نعم هذا اسمي... ولكنني لست جاسوساً ولا أميركياً؟

- أعرف هذا، ولكنني أعرف أيضاً أن هناك كلب وحيد في هذا البلد يسمى ليدر لا غير؟

- أعتقد ذلك.. هذا هو أنا... ولكن لمَ تقول ذلك.

- لأنني على معرفة كافية بهذا المسمى ليدر، فإن كنت أنت هو فلا بد أن تكون قد عرفتني!

أسكتني جوابه، فبدأت بتقليب ذاكرتي عسى ولعل توصلني لذكرى أو معلومة تعينني ولو ببصيص أمل لأتعرف على هذا الماثل امامي المدعو "جنرال" والذي يعرفني أو يحاول أن يوقعني في شراكه.

- عذراً منك يا... يا.."جنرال"... ذاكرتي تضعف مع مرور الأيام. قلت أخيراً.

- سأنشط ذاكرتك!

قال ذلك الجنرال ونهض عارضاً على أنظاري قوامه الضخم، جسد حرقته الشمس ولا عيب فيه سوى عرج في قدمه اليسرى يكاد لا يتبين كثيراً. دار هنا وهناك أمامي، ثم انحنى قرب أسماعي واسرني بتعويذة كنت أتداولها في صغري ولا يعرفها سوى كلب واحد عندما كنا نتنادى فيما بيننا هناك في مكان عزيز أصبح بعيداً في الخلف منا... "ياه، مستحيل، لا أصدق ما تراه عيناي!".

ضحك الجنرال وازاح شاربيه لأتبين خلفها وجه شقيقي الذي فقدت منذ زمن.

رغم وجعي وجروحي فقد قفزت فرحاً دائراً خلفه ومتمعناً كيف صار شقيقي بهذه الصورة. هو بدوره لم يأت بأي رد فعل وكان كل

لحظة يبدي مظهراً جدياً شرساً فهمت فيه بأنه لا يستطيع إبداء أي تعاطف أو تقرب أمام شلة كلابه المنقادة له والتي لم تكن ببعيدة عنا تراقب تصرفاتنا.

لم يصمت بعد ذلك للحظة. أمر الكلاب الأخرى أن تساعدني باسترجاع قواي، فكان أن نظفوني وعالجوا ما أمكن من جراحي التي تسببوا بها، وعندما شعرت بالانتعاش والراحة قليلاً، قادني شقيقي خارج المجموعة "تعال معي لنجد مكاناً ننفرد فيه!". وترك عصبة كلابه متأهبة آمراً إياها أن تبقى حيث هي.

في مكان معزول بعيداً عن عيون ونباح كلابه المنقادة، سمع مني ما جرى لي في الأيام الاخيرة وكيف وصلت إليهم، ولم يسألني عما جرى لنا في بيت المعلم ولا ما آل له مصير أبوينا. أخبرني بدوره أنه قد عرف الكثير من حياتنا السابقة عندما وقعت بيده عليقة تضم دفاتراً حصل عليها من أحد الكلاب الذي قُتل في الآونة الأخيرة ويتذكر اسمه جيداً "هوذا"! كان قد وصل قبل شهر تقريباً إلى معسكرهم هذا وطلب المساعدة بالهرب من البلاد. قال شقيقي: "كنت أشك بوضعه الموارب، تصرفاته غريبة ومع ذلك كنت مستعداً أن أساعده على الهرب لطالما ساعدت العديد منها. لم أحر للأمر أهمية حتى وقع نظري على العليقة التي يحملها معه وعندما لم يتركنا نعرف ما فيها، زادني شكاً فأمرت كلابي أن تنهبها منه. ما أن رأيت الدفاتر وتعرفت فيها على مذكرات المعلم وما خطته يده، ولما لم يقدم لي "هوذا" تفسيراً مقنعاً عن كيفية وصولها له. آنذاك زدنا بتعذيبه، فأعترف لي بما قام به، ويا ليته كذب أو ماطل بكلامه ولم يعترف لي بالحقيقة!.. لم أطل الأمر وتركت مصيره لأنياب كلابي المسعورة فقطعوه تقطيعاً ورموه بجثته بعيداً وسط الصحراء لتأكلها الطيور الجارحة وبنات آوى.. وها هي اليوم معي وقد قرأت أغلب

أجزائها وعلمت عبرها ما حل بالجميع، أوضاعكم الأخيرة، كيف مات أبوينا وما جرى لك أيضاً، فقد دون المعلم تفاصيلها بكل دقة".

هنا ادركت وحسب أن العليقة التي يحملها شقيقي معه ما هي إلا دفاتر ومذكرات المعلم التي نهبها "هوذا" من ضمن ما نُهِب من بيت المعلم، فلم اتأسف عليه ووعيت أنه قد خط مصيره جراء ما اقترفت يداه. ما كنت متلهفاً له هو أن يخبرني شقيقي كيف وصلت به الأمور إلى أن يقود عصبة كلاب في صحراء لا حد لها.

قال لي: "لا تزوق الكلمات يا ليدر، أنا أقود عصبة قطاع طرق وهذه هي الحقيقة... أما كيف وصلت لهذا الواقع، فقد كان منذ فترة طويلة، أوضاع الحرب الأخيرة والدمار زادها شراسة وزادني وعصبتي قوة وسلطة".

راح شقيقي يفكر مسترجعاً تاريخ أيامه التي تلت فراقه عنا بعد أن أهداه المعلم لصديقه، فكان أن أخبرني دون توقف وكأنه يرى كل شيء يمر أمامه عبر شاشة لا مرئية، مغمضاً عينيه شارد الذهن قال لي ملخصاً حياته الماضية.



شقيقي يسرد وقائع حياته الماضية

"لم أرك منذ أن منحني المعلم لصديق له، كان يظن بي قد انتهيت ولم أعد أنفع بشيء. لكن الصحيح أن قدمي المشروطة وعرجي زادني قدوة لأكون ما أرغب، وهذا ما لمحه بي ذلك الرجل الذي أصبحت بعهدته، فكان أن تركني لفترة طويلة لوحدي بلا أي طعام أو شراب. كان يجوعني لأيام ومن ثم يقدم لي فريسة سهلة، أقطعها تقطيعاً والتهمها بظرف دقائق. في البدء كان يقدم لي الدجاج والطيور بأنواعها، ومن ثم راح يلقي لي خرفاناً وأرانب وماعزاً، بل حتى خنازير برية لا أعلم من أين حصل عليها. كان على ما يبدو يدربني على القتال. تجويع وصمود لأيام، ونزاع معارك بعد ذلك. حتى جاءت اللحظة الحاسمة عندما رأيتني وجهاً لوجه مع أحد الكلاب المتشردة، والذي لم يصبر أمامي سوى دقيقة، مات المسكين بين أنيابي دون أن يكون له الأمل بمواجهة حقيقية أو على الأقل معركة متكافئة.

بعد مران طويل ومواجهات مع كلاب مختلفة الأنواع والحجوم، حضر يوماً ليقودني معه في سيارته إلى مكان بعيد خارج المدينة. هناك في مزرعة منعزلة تعود لرجال دولة مهمين، قمت بمعركتي الرسمية رقم 1 والتي ستجر إلى معارك أخرى في المكان نفسه أو في أماكن أخرى. ما أن تزداد شهرتي ووحشيتي وانتصاراتي حتى أرى صاحبي سعيداً باشاً يقودني من حلبة لأخرى وليس علي سوى أن أزيد قائمتي من الكلاب النافقة تحت أقدامي ودمها يصبغ فمي وجسدي صبغاً. كانوا قد أطلقوا عليّ اسم "الأعرج المميت"، وكان الجميع يتمنى

لكلابه أن تكون بنفس خفتي واهتزاز جسدي وأنا أحاصر ضحاياي. أصبحت شهيراً وما يمر أسبوع دون أن أكون في حلبة صراع يتحداني فيها كلب جديد. لقد مرت بين أنيابي هذه اجساداً لا تحصى ورقاباً مقصومة لدرجة لم اعد أتذكر كم صرعتُ في نزاعاتي تلك، ولم اعد قادراً على تذكر الوجوه الكلبية الممددة تحتي.

لكن كما أنه لكل شيء بداية، لا بد وأن له نهاية قريبة!

فـي الأيـام الأخيـرة كان صاحبي يحملنـي لمنازعات في قصور نـاس مهميـن واحـداً منها كان قصر الرئيس نفسـه. كان الحضور من كل الطبقـات والمراتـب، كنـت ألمح ابن الرئيس في مقدمتهم، وكان عليّ في واحدة من عراكاتي أن أصارع كلب ابن الرئيس نفسه. كنت واثقاً من قدرتي على صرعه بنفس السـهولة التي صرعت فيها كلاباً عاتية، غير أنني في تلك المرة شعرت بحركة غريبة تجري من حولي ويشارك فيها صاحبي نفسه.

قادني برفقة آخرين إلى حجرة جانبية، هناك ربطوني إلى عمود وضربوني بقسـوة على قدمي اليسـرى ليزداد عرجي عرجاً، كما أنهم راحـوا يكيلـون لرقبتـي وظهري ضرباً وكسـراً، ثم أدخلوا في خلفيتي أنبوبـاً ونفخـوا فيه، ومسـحوا أنيابي بمعجون غريـب الطعم. تركوني لربع ساعة، ثم جاء صاحبي وفك قيدي وسحلني حتى الحلبة لأواجه بأكبـر كلـب رأتـه عيناي حتى اليوم. كنت محطماً بكل معنى الكلمة، مخدراً ولا قدرة لي كبيرة على الوقوف أو التحرك والقفز. عرفت وأنا في مواجهة هذا الوحش بأنه كلب ابن الرئيس، ولمحته متحمساً ينفث دخان سيكاره الطويل ليراه يسحقني سحقاً. هناك فهمت ما قاموا به معي من تكسير وتخدير حتى لا أستطيع الفوز على كلبه المدلل.

لـم يمهلنـي الكلـب الوحـش ذاك أيـة فرصة للتنفـس ومراجعة إمكانياتي، فكان أن هجم عليّ وقظمني قظماً شديداً ومن ثم طوحني

عالياً لأحط مرتطماً بالسياج الحديدي الذي يحيط حلبتنا. لم يكن لي فرصة للنجاة حقيقة، فقد قرر الجميع أن أكون الضحية القادمة. لكنني في داخلي كنت رافضاً لهذه الخديعة، إذ بقيت أتحمل عضاته وركلاته بكل برودة أعصاب، حتى وجدت فرصتي الوحيدة لا غيرها عندما أرخى عظام رقبته ظاناً بأنني قد قضيت نحبي، فكان أن درت دورة كاملة محرراً جسدي قدر المستطاع وقفزت قفزتي العرجاء التي يعرفها جميع منْ حضر نزاعاتي السابقة... قفزة من الخفة أن فاجأت الكلب المتوحش هذا مثلما فاجأت الكلاب الأخرى التي فطست بين أنيابي. حركة من الدقة أن الكلب الآخر لم يعرف أين أختفيت عن أنظاره حتى شعر بأنيابي القاطعة قد انقضت على تفاحة رقبته، بينما أقدامي متشبثة بجسده الهائل لتمنعه من الحركة منعاً باتاً، فلا قوة في العالم آنذاك كانت قادرة على تخليصه من قبضتي.

كنت ألمح كلب ابن الرئيس يلفظ أنفاسه دون أن أرخي عضلاتي. بمواجهتي كان الحشد الهائل يصرخ بكل الألفاظ، ولكن لا أحد كان قادراً على تشجيعي إزاء نظرات ابن الرئيس المجنونة وهو يرى بعينيه كلبه ينفق بين أنيابي. لحظات قبل أن أفك الكلب وقد تقهقر ومضت روحه بلا رجعة، لمحت ابن الرئيس بإشارة ما لآخرين، ولأرى نفسي وحيداً - جثة الوحش غارقة بدمائها على الأرض أمامي - بمواجهة ثلاثة كلاب بضخامة الوحش نفسه. شعرت بالهزيمة ولم أرَ منْ يحتج. لم أحتج انا نفسي مثلما لم أكن واثقاً بالمرة من فوزي القادم بمواجهة ثلاثة كلاب دفعة واحدة، كلاب مثلي متمرنة على الصراع والقتل. حاولت بكل ما بقي لي من جهد وقدرة على النهوض، إلا أن محاولاتي باءت بالفشل، لأجد نفسي معضوضاً مدمى ومطوحاً بي من الكلاب الثلاثة التي كانت تتسلى بلعق دمائي وتقطيع أوصالي حتى فقدت الوعي تماماً. انطرحت

على الأرض قرب جثة الوحش، وقد ظننت أنني قد انتهيت. مت. أغمضت عيني ورحت في إغفاءة عميقة مغادراً الدنيا للأبد...

لا بد أنني قد غبت عن الوعي لساعات قبل أن أشعر بنفسي مرمياً فوق أكوام أزبال خارج المدينة.

كان من الصعب عليّ تحريك جسدي. الجروح المفتوحة في كل أنحاء جسدي كانت ما تزال تنز دمها، رقبتي نصف معضوضة وأقدامي مكسرة، لكنني كنت ما أزال على قيد الحياة بعد فوق مزبلة عالية علو بناية ضخمة. فكرت أن صاحبي أو آخرين قد حملوا جثتي الدامية - ربما عرفوا بانني حي ولا نفع بي بعد ذلك بشيء - في سيارة ومن هناك رموني دون أن يراهم أحد، تاركين للقدر أن يقرر موتي من نجاتي. لا أعرف حتى اليوم كيف لم يقتلوني بطلقة واحدة، وكان هذا أسهل الحلول؟

ما جرى لي بعد ذلك كان رحلة عذاب ومداواة على مدار أشهر.

متخفياً عن الأنظار استرجعت قواي وبدأت انظر للأمور بشكل آخر. كان جل همي أن أداوي جراحي العديدة، ولم اكن ألجأ لخروج أو مجابهة سوى للحصول على ما يبقيني على قيد الحياة. كنت مثل فأر الجحور، لا حول لي ولا قوة على أي ظهور، متوارياً عن الأنظار قدر المستطاع، همي الوحيد العيش، العيش وحسب.

في تلك الفترة بدأت أفهم الحياة فهماً مختلفاً، ليست كحلبة صراع وحسب بل أكبر من ذلك بكثير، ومع ذلك فالحياة نفسها إن كانت قد قدرت لك درباً تسلكه فلا مجال لمخالفتها. كنت قد وطدت نفسي في تلك الشهور على منوال آخر وقد بدأت أشفى تدريجياً من جراح الجسد والروح، وفكرت أن الحياة ستلقاني بمصير آخر، لكن الأقدار تنقلك من جديد لمواجهات أخرى... فها أنت تراني أقود عصبة كلاب قطاع طرق، أجل قطاع طرق فهذا اسمها الحقيقي في

بـلاد بـلا قانـون ولا أمان. كان علـيّ أن أتركها تنهش من لحمي لأن مواجهتها كلها كان مستحيلاً، أو أن أحك بظرف ثوان ما وطدت نفسي على نسـيانه طوال أشـهر الشـفاء، وهو ما حصل تماماً.. بلفتة واحدة اسـترجعت حاسـتي في القتل والمجابهة لأرضخها لسـلطتي. حصل كل شيء دون مواجهات دموية تستحق الذكر، كأنها كانت بانتظاري، كانت بحاجة لقيادتي، وقد رضيت بتسلطي وهيمنتي عليها.. وأنا منذ ذلـك الوقـت حتـى الآن أمضي بقيادتها متمتعاً بصفة "جنرال" وهمية تقدسـها عصبتـي حتـى الموت. اليوم معهم، بعـد الأحداث الأخيرة، أحكـم مقاطعـة طويلـة قـرب الحدود، لا أحد مـن رعيتي يرفض لي أمراً أو يعارضني بشيء. أمضي وحيداً في كل أفعالي، مقتنعاً يوماً بعد آخر بأنني جنرال فعلاً وسـأنتصر انتصاراً عظيماً أو سـأموت شـر ميتة كجنرال لهذه الزمرة... لكن دعني أخبرك شيئاً يا شقيقي، أنا مقتنع أن يومي الأخير سيقدم عن طريق واحد من أعواني أو عن طريق عصابة أقوى تنافسنا على الربح، وهي في تكاثر. لا شيء نافع بكل ما قمت به سابقاً، ولا شيء ينفع بما أقوم به اليوم، لكنه الشيء الوحيد الذي عرفته وعلموني منذ الطفولة، ومجبر على القيام به حتى النهاية... أن أقوم به على أفضل وجه - أو أسوأه منْ يدري - وهذا ما أنا ماض به حتى ختام الشوط... الختام لا غير".



هارباً في شاحنة ومتمعناً

البلد يمضي إلى الخلف

صعدت شاحنة واقفة عند الطريق. كان صاحبها يغط بالنوم على كرسي القيادة آملاً باستراحة قصيرة ليقوم بالسياقة مع برد الفجر وضوء النهار.

لم نكن سوى شقيقي الجنرال وأنا، لم يصطحب أي من عصابته. رافقني حتى الطريق العام بعد أن اجتاز بي كثباناً رملية لا يعرفها أحد سواه، متفادياً بنباهته مصائد البشر من هذا الجانب أو ذاك. عندما وصلنا إلى حيث شاحنات عدة واقفة هناك، أشار لي أن أقترب من شاحنة صغيرة مليئة بآثاث قديم، حقائب وعلب كارتون متعددة الحجوم. قال لي: "هنا أفضل... بين هذه الأغراض لن يشك بوجودك أحد وستجتاز الحدود بأمان".

لم أعرف ما عليّ أن أجيب. شقيقي أراه في ليلة لنفترق في فجر اليوم التالي، ما هذا القدر المجحف؟! ولأنه قد اعتاد على التكيف سريعاً مع الظروف، فبحركة من جسده وإشارة من رأسه الشامخ:

"الآن يا ليدر، لا تتأخر وإلا أيقظناهم".

اقتربت منه محاولاً احتضانه وتوديعه، رأيته يمد لي قدمه المعاقة ولمحت في عينيه ما يشبه غشاوة لم تعن لي شيئاً، غشاوة لتغطية مشاعره التي كانت ستنفجر بأية لحظة وتشيء بضعفه مثلما كنت عليه أنا. هذه المرة سمح لي بالاقتراب، وعصرني إليه بقوة وكأنه بذلك اراد أن يودعني للأبد، أو أن يودع في داخله ما يذكره بي، رائحة ما أو احتضانة تخلد للأبد... ثم قال لي:

"اهرب يا شقيقي... لم يعد هنا من أمل، فإذا كنت قد رهنت حياتي هنا لأنه لم يعد لي شيء في هذا العالم... أنا منته، أما أنت فلا... امضي بعيداً، اصنع حياتك وحاول الحفاظ على سلالتنا... رافقتك السلامة".

عاد أدراجه من حيث تسللنا، غاب بين كثبان الرمال التي تجاور الطريق العام. ولم ألمحه بعد ذلك.

قفزت بخفة وغبت بين الآثاث والصناديق، حاولت أن لا يراني أحد وقد تركت لعيني اليمني فراغاً أراقب عبره مَنْ يقترب مني وكذلك لأرى الطريق متجسساً وضعي ومحطات وصولنا، دون أن أترك العليقة التي تضم دفاتر المعلم ومذكراته بعيداً عني والتي منحني إياها شقيقي، متمسكاً بها بشدة لصق الصدر.

بعد أقل من ساعة سمعت لغطاً ونداءً بين السواق، لأرى من ثقب تمعني للعالم بأن الجميع قد تأهب واستعد لتشغيل شاحنته، أوقدوا الأضوية وراح الواحد يمضي خلف الآخر، هذا في البدء، ليتفرق الجميع، كل واحد منهم بمسافة مناسبة عن الآخر.

كانت شاحنتنا الأخيرة في الرتل، بل كانت في أحيان عديدة تبقى إلى الوراء وكأنها تمضي لوحدها. حزرت ذلك من أنها شاحنة عتيقة لا تقوى على الجري بسرعة يضاف لما تحمله من ثقل أغراض، لم يكن يساعدها على متابعة سرعة الشاحنات الأخرى. لم أستطع النوم ولا حتى إغماض العينين لإراحتهما. كنت متوثباً وأنا أشهد لحظاتي الأخيرة على أرض الوطن، اللحظات التي لا تسترجع بعد ذلك. ذلك أننا بظرف ساعتين أو أقل كنا خارج حدود الوطن، في بلد آخر (لا أريد أن أذكر له اسماً) وعليّ القبول بكل ما أراه وما يمر بي وما يسوطني به الحظ.

في بداية الطريق كنا نمر بمقابر لعجلات ودبابات محترقة

متفحمة كأنها بشر أو أشجار تسيج الطريق وتقوم بتوديعنا بتكشيرتها الشيطانية. لم أر ما يدل على حياة سابقة.. كل شيء كان منكس الرؤوس ومدمر.. كل شيء لا يُذكر سوى بالهجر والنسيان.

كانت الشاحنة قد أصبحت لوحدها في منتصف طريق قاحل، ما يحيطنا على اليمين والشمال، لا شيء غير الرمال والغبار المتناثر علينا. لم ألمح بشراً ولا حيوانات هائمة ولا ما يشي بحياة، لا شجر ولا خضرة على امتداد البصر. لم ألمح غير كائنات حديدية مزنجرة، محترقة ومتآكلة، بعضها منذ فترة قريبة والبعض الآخر من الشاحنات والمدافع والدبابات لا بد أن مرت عليه عقود طويلة. أصبحت الصحراء بلون الخاكي ورائحة بارودة الذي يهيم في الفضاء بلا كابح. اللوحة التي رسمها ذلك الفنان الخالق لتلك اللحظة وسط الصحراء، لم يحتج سوى للون واحد، لون الرمل، لون الصحارى، لون شمس محمصة بأشعتها، لون الغياب الحارق ذاته.

إزاء ذلك لم يعد لي من فسحة سوى مراقبة الطريق يتراجع والبلد يسير إلى الخلف بلا أدنى أمل باسترجاعه... مخذولاً، جائعاً ومنهكاً، ضعيفاً، متآمراً وقاتلاً، كلها تنطبق عليّ، كل شيء بي منها، وكل شيء في كل واحد منا، لقد تحولنا من كائنات بسيطة إلى مخلوقات متوحشة، بشعة، نرى الخراب والدم ولا يرمش لنا جفن ونحرض على الموت والقتل وكأنه حقيقة كل شيء... "اهرب، اهرب" قالها شقيقي، ونسيت أن أسأله "وكيف نهرب يا شقيقي من الذاكرة المعششة في كل واحد منا؟".

غبار الشاحنة يخفي ويصبغُ ما تبقى من لمعان أو بياض في الطرقات والخرائب التي ألمح على الجانبين. يصطبغ المنظر بصبغة تيه حقيقي، أراقبه من شقي في الشاحنة التي تقترب من خط نهايتها لتجتاز خطاً وهمياً يسمى الحدود. أرى كل الأشياء تتلاشى شيئاً

فشيئاً، وكل ما يحيطني يتحول بلون التراب، طينة خلقنا الأولي.

كل شـيء تحول - أمامي ولا مفر منه - إلى لوحة قاتمة بلون واحد لا غير، لون الحقيقة المُرّة.



خاتمة المذكرات

اليوم في خصي، لا قوة لي على الحركة كما كنت عليه سابقاً إلا ضمن حيز الأمتار القليلة التي تضمني.

عالمي لم يعد أبعد من هذه الأمتار، على الرغم من أن مخيلتي وأفكاري تنأى بعيداً عن هذا المكان الذي أنا فيه، جسدي هنا ولكن روحي ظلت هائمة هناك في سماء العراق وقرب دجلة.

أحسب أيامي المتبقية، أفليها فلياً وأترقب النباح القادم من جهات غير معلومة، عسى ولعله ينقل لي خبراً عن أرضي التي تركت. لا أطمح سوى بأخبار مطمئنة عن أهلي الذين يعيشون هناك، كل البشر والبهائم والشجر والأحجار التي عرفت ولم أعرف، لا أمل لي باستطلاع أخبار الأهل وذلك بعد أن فقدت الكل تقريباً، أشقائي أيضاً أصبحت مصائرهم مقدرة!

لكن لا شيء من هذا الذي أرغب يصل أسماعي. كل ما يصلني أو ما اقرأه أحياناً عندما تقع بيدي صحيفة ما، لا شيء مطمئن يأتي من بلادي، أخبار الموت والقتل والتشريد والدم هي الشائعة وقد أصبحت الحقيقة الوحيدة في البلاد، لا أخبار مفرحة حقاً. أيامي بدأت تثقل، كل يوم بخبر موتى جدد وسماء ملبدة بغيوم سود... السواد لا غير.. الأيام ليس لها غير لون العتمة التي تخيم علينا وعلى سمائنا الجامدة.

مسار أيامي يمر بهذه الصورة، لا شيء جديد. حالي مثل قول تلك الأغنية التي سمعت وحفظت من المعلم والتي تقول: "مثل وردة وشحيح الماء.. مزنة مطر تنتظر".. أنتظر المزنة بفارغ الصبر وعود

أملي يجف كل لحظة.

في الأيام الأخيرة بدأت أستمع لخطوات خفيفة محترسة تقترب من خصي. ما أن أنهض محاولاً تبينها حتى تكون قد اختفت ببراعة وسرعة عجيبتين. في الصباح أجد منْ ترك لي علبة معدنية تضم قطعة لحم مطبوخة أو نيئة، عظماً أو قدم دجاجة بدمها. كانت الحركة تتكرر بين يوم وآخر، ولم يعن لي معرفة صاحبها، حتى فقدت الاهتمام والتمحيص بذلك.

لكن حياتي الباقية على رمق، مدينةٌ لهذا الزائر الليلي وبفضله ما زلت حياً أقاوم الظروف السيئة والذكريات القاتلة لكي أنتهي من تدوين هذه اليوميات واتأمل شروق الشمس مثل غروبها، ممعناً بمخلوقات الرب وطبيعته التي لا تكل.

و... أيضاً... منتظراً خلاصي الأخير بإشارة سماوية كي أتبع آثار أحبتي الذي سبقوني، كلهم، والدي السلوقي وأمي السوبويسو والحبيبة جميلة، ولا أعرف أيضاً إن لحقهم إخوتي أم ما زالوا أحياء في بقعة بعيدة، صحبي ومعارفي كلهم... وبالطبع معلمي، صاحبي ورفيقي.

كنت أظن ابتعادي عن بلدي سينسيني كل شيء، لكن لا فكاك من تذكره كل لحظات جلوسي ومقامي ها هنا. أتذكر ما سمعته يوماً ما ولم أفقه معناه إلا الآن وهو "أننا نعرف بلدنا أكثر ما أن نبتعد عنه"!

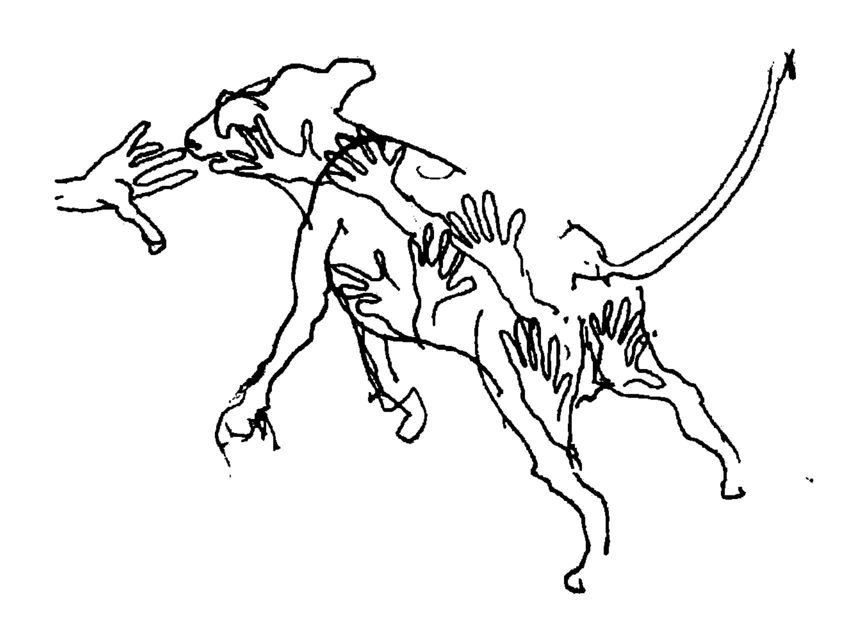
تمر أيامي الأخيرة وأنا في ضيق وحسرة، أخشى أن أقضي نحبي وتضيع دفاتر المعلم التي حملتها معي.

لا هدف لي في أيامي المتبقية سوى الحفاظ على مذكرات صاحبي المعلم. لا أريد أن أرحل عن العالم قبل أن أودعها بأيد أمينة. تدريجياً بدأت أطمئن على حضور زائري الخاطف، وأدركت

أنني أخيراً لا بد وأن أتركها عهدة عنده قبل أن يفاجئني مفرق اللذات بسلطته التي لا سلطة لآخر عليه.

موقن الآن تماماً أن العمر كله تجربة مستمرة لا تتوقف، وأن هناك منْ يهبك عبرها فرصة الحياة وكلك امتنان له. وهناك منْ يهبك المعنى الحقيقي لحياتك تلك، وهذا هو الذي لا يمكنك نسيانه أبداً حتى لو دفنت تحت آلاف الأمتار وأصابتك من الفواجع ما لا يُعدُ ولا يحصى وما مر بك من وقائع غريبة وأحداث عجيبة قد شكلت حياتك أو ما تبقى منها على هذه الصورة التي أنت عليها والتي لا فكاك من أقدارها وحظوظها!





مذكرات كلب عراقي

رواية

عبد الهادي سعدون



• روائي وكاتب من العراق

ما أن ترجل المعلم وأنا من خلفه حتى صرنا بمواجهة رجال غامضين يرتدون بدلات متشابهة، لم تكن بالعسكرية ولا المدنية، لهم سحنات قاسية ويتحدثون بلغة الأمر. سمعت قائدهم يخبر المعلم قائلاً:

لقد قررت الدولة مصادرة الأرض الزراعية المطلة على النهر لضرورات أمنية. عليك منذ يوم غد إخراج كل مَنْ يعمل عندك ونقل المعدات إلى البيت. ستكون هناك وحدات حراسة خاصة في المزرعة. لا مجال للمماطلة بالتنفيذ، إن كان لك حق طالب به في المحكمة. لقد سمحوا لك مؤقتاً وحتى إشعار آخر البقاء في البيت... البيت وحسب... كل مَنْ يدخل سيدون أسمه وعليك أن تحترس كثيراً.

كنت على وشك أن أبادر المتكلم بعضة في رقبته، لكنني لمحت إشارة يد المعلم، كما أن أبي عالج الأمر بأن سحبني حتى الخُص برفقة أمي وأمرني أن لا أتحرك.

سلم الرجال المتشابهون ورقة الأمر إلى المعلم ومضوا بعجلاتهم. ما أن غادرونا حتى رأيت المعلم يدخل الدار، ليخرج بعد لحظات برفقة كأسه ليجلس في منتصف الحديقة مدخناً ومتأملاً مزرعته الهادئة - أو ما كانت حتى اليوم مزرعته - بعدها أخرج ورقة الأمر، مزقها ثم رماها على الأرض وداسها بقدمه.

تشاغلتُ طوال الوقت بالتفكير بما سيحل بالمعلم و بنا. أبي الذي كان قد هرم كثيراً، ربت على ظهري ولمحت على وجهه الجاد تعابير منْ عاشَ دهراً وقد تعود على أوضاع مماثلة وكأنها صورة مكررة عن أزمنة سابقة.

لوحة الغلاف: الكلب، للفنان غويا

تصميم الغلاف: سامح خلف



ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.



ISBN 978-9948-446-28-6